

الفصل التاسع أعلام الكتاب

١

ابن^(١) المقفع

فارسي الأصل، اسمه رُوْزْبِيَهْ بِنِ دَاذُوِيَهْ، كان أبوه من قرية لإيرانية تسمى جور، نزل البصرة، وظل على دينه مجوسياً مانوياً، غير أنه استعرب سريعاً، لاختلاطه بمواليه آل الأهمّ التميميين، وهم يشتبهون باللسن والفصاحة والخطابة، ولم يلبث أن عمل في دواوين الخراج للحجاج، وظهرت عليه خيانة في أموال الدولة، فضربه الحجاج ضرباً مبرحاً تقفّعت (يبست) منه يده، فسمى من حينئذ المقفّع، ولم يُسَلِّمْ، بل مات على دينه، وعليه نشأ ابنه، ويظهر أنه عنيّ عناية شديدة بتأديبه، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية، وقد مضى يتكسّب بصناعة أبيه، فاشتغل، في دواوين العراق آخر زمن بني أمية، إذ كتب لعمر بن هبيرة والي العراق لهشام بن عبد الملك، وكتب لابنه يزيد في ولايته العراق لمروان بن محمد، ولابنه الثاني داود في ولايته على كيرمان بإيران وأفاد منهما أموالاً كثيرة. ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن علي عم المنصور وواليه على البصرة، ولأخيه عيسى بن علي والي الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبي محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن

١٨١/١ والأغانى (طبعة الساسي) ٢٠٠/١٨
وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة
بولاق) ص ٤٠٨ وخزافة الأدب للبغدادى
٤٩٥/٣ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة
ليبرج) ص ٧٦ ومقدمة كلية ودمنة
لمبد الروهاب عزام (طبع دار المعارف)
وضحى الإسلام لأحمد أمين ١٩٥/١ ومن حديث
الشعر والنثر لطف حسين (طبع دار المعارف) ص ٤٦.

(١) انظر في ترجمة ابن المقفع وأخباره
الفهرست ص ١٧٢ والجهشيارى ص ١٠٣ ،
١٠٩ وفي مواضع متفرقة وأمالى المرتضى ١٣٤/١
وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢
و ٤٧ والبيان والتبيين ١١٥/١ وفي مواضع
متعددة (انظر الفهرست) والحيوان ١/٧٦ ،
٢٣٠/٦ ومروج الذهب للمسعودى ٤/٢٤٢
واعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ وزهر الآداب

يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه في حفل عظيم ، وحدث أن حضر طعام العشاء ، فلاحظ عيسى أنه يأكل ويزمزم ، أو بعبارة أخرى يدعو بأدعية الجحوس ، فسأله عيسى : أتصنع ذلك وأنت على نية الإسلام ، فأجابه : كرهت أن أبيت على غير دين . وظل بعد إعلانه الإسلام يعمل في دواوينه .

واتفق أن يخرج عبد الله بن علي عم المنصور وواليه على الشام ، إذ أعلن ثورته عليه ، غير أن جيوش المنصور هزمته ، ففر إلى أخويه سليمان وعيسى ، فطلبه المنصور منهما ، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً ، فقبل ما عرضاه ، وكلفهما كتابته ، فأمر ابن المقفع أن يكتبه ، فكتبه ، وتشدّد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملاه موحدة ، إذ طلب إليه أن يكتب في أسفل الأمان هذا التوقيع ^(١) :

« وإن أنا نلتُ عبد الله بن علي أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحد منهم ضرراً سيراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل ، فأنا نقي من محمد بن علي ابن عبد الله ، ومولود لغير رشدة ، وقد حلت لجميع أمة محمد خلتى وحرى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا مولاة بينى وبين أحد من المسلمين . وهو متبرئ من الحول والقوة ، ومدّع إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولّى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرّم المأكّل والمشرب والمناكح والمركب والرّقّ والمملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها . وكتبت بخطّى ، ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه ، والوفاء به » .

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن علي عمك ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فانتهاز فرصة قدومه إليه ذات مرة ، وأمر بتسّور ، فُلّي وقوداً

(١) الجهشيارى ص ١٠٤ .

حتى إذا حميت ناره أخذ يقطعه جزءاً ويري بكل جزء في الثور حتى أتى عليه . ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيدته للإسلام ، ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح ، لما صعب في صيغة الأمان على المنصور تصعباً امتهن فيه كرامته ووطنها بالأقدام ، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بعمه أو بأحد ممن معه فנסاؤه طواق وعبيده أحرار ودوابه محرمة عليه والمسلمون في حل من بيعته بل عليهم أن يجاروه حتى يعطى عن يد وهو صاغر ، وأيضاً فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان . فكان طبيعياً أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله ، ويقول الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن علي بالمنصور ، ففطن له وقتل ، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن علي سوى صيغة هذا الأمان المشتم ، واختلف الرواة في السنة التي قُتل فيها ، فقبل سنة ١٤٢ و قبل سنة ١٤٣ و قبل سنة ١٤٥ للهجرة .

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو السبب الحقيقي في قتل ابن المقفع أننا ننفي عنه الزندقة ، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده ، وكان المهدي يقول : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع »^(١) ويقول المسعودي : « أمعن المهدي في قتل الملحدين . . لما انتشر من كتب ماني وابن ديان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وتُرجم من الفارسية والتهلوية إلى العربية »^(٢) ويُقال إنه مرَّ بيت نار للمجوس بعد إسلامه ، فلما رآه أحسَّ بحنين شديد إلى دينه المانوي القديم ، وأنشد بيتي الأبحوس^(٣) :

يا بَيْتَ عاتِكةَ الذي أتَعزَلُ حَذَرَ العِدا وبك الفِرْوادُ موَكَّلُ
إني لأَمْنُحك الصدودَ وإني تَسْمَأُ إليك مع الصدودَ لَأَمِيلُ

وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوي القديم فهو يظهر الإسلام ويضمّر مانويته ، وقد مضى ينقل ديانات فومه المحوسية ومذاهب الملحدين

(٣) أمال المرتضى ١/١٣٥ .

(١) أمال المرتضى ١/١٣٥

(٢) مروج الذهب ٤/٢٤٢

مثل ابن ديصان ومرقيون ، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النقل وما كان يتصل به من ترجمة الحكم الفارسية ، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم ، وعرض لذلك الباقلاني فقال : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرّة البيّمة ، وحى كتابان : أحدهما يتضمن حكماً منقولة . . والآخرفى شىء من الديانات (١) » وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً فى نقض زندقته سماه « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله » . وذكر فى أوائله أن ابن المقفع وضع كتاباً عاب فيه المرسلين واقترى الكذب على رب العالمين (٢) ، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدماً . وشك أحمد أمين فى هذا الكتاب الذى نسه ابن طباطبا إلى ابن المقفع ، ولا يبنى هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرءوا كتاباته ، وكثير منها سقط من يد الزمن .

وكان - مع زندقته - نبيل الخلق وقورا يترفع عن الدنيا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله ، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة ، ويقول الجهشيارى إنه « كان سريراً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه . وكان يُجترى على جماعات من وجوه أهل المصره والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر » . وتروى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض ، كما تروى عنه أخبارٌ تدل على دقة حسه . من ذلك أن عيسى بن على دعاه يوماً للغداء فاعتذر بأنه مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار (٣) . وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم ، فسأله سائل : من أدبك ؟ فقال : نفسى ! إذا رأيت من غيرى حسناً أتيته ، وإن رأيت قبيحاً أبيتة » . وكان يقدر الأخوة والصدقة حق قدرهما ، وقد بنى عليهما كثيراً من حكمه ونصائحه فى الأدبين : الصغير والكبير . وكان ذكياً ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد

(١) إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام)

حويدى) ص ٨ .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٣٦

ص ١٨ .

(٣) كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر

الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع»^(١) . وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم ، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب . ولعله لذلك دأب على الشكف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما تُرجم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنوشروان .

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة ، وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر ، فقد نقل عنها كما مرّ بنا في غير هذا الموضع كتاباً في تعاليم مزدك وكتاب «خدای نامه» وهو في سير الملوك الإيرانيين ، وعليه اعتمد الفردوسي في نظم «الشاهنامه» وكذلك نقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان . ونقل عنها في أنظمة الملك وتدير السياسة والحكم كتاب «آيين نامه» ورسالة «تنسر» وفي عيون الأخبار منهما ومن كتاب التاج نقول مختلفة . وكان في الفهلوية أدب أخلاقي كثير نما في بلاط الساسانيين ، وكان يُراد به إلى تثقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تُشْفَعُ به من الحكيم ، ونقل من ذلك ابن المقفع مادة غزيرة في الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة ورسالة الصحابة . وعمد إلى خير أثر في لغته للهنود وهو كتاب كليلة ودمنة فنقله إلى العربية ، كما نقل عن لغته بعض ما تُرجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو في المقولات والقياس المنطقي .

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود ، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسه ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم في الملك والقضاء وفنون الحرب . ونحن نقف قليلاً عند الأدبين الصغير والكبير واليتيمة ورسالة الصحابة .

والأدب الصغير رسالة قصيرة^(٢) في نحو ثلاثين صحيفة تتضمن طائفة من

محمد كرد علي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها .

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللدوي (طبعة مكتبة هُضَة مصر) ص ٢٨ .
(٢) انظر الأدب الصغير في رسائل البلغاء

الوصايا الخلقية والاجتماعية التي ترشد الناس إلى صلاح معاشهم في أنفسهم وفي علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن غيرهم ، وزراه يقول في أوائلها : « قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عَـوْنٌ على عمارة القلوب وصيقلها وتجليه أبصارها ، وإحياءٌ للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » ومن قوله في تضاعيفها :

« على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزلل في العلم والإغفال في الأمور. إن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً ، فإذا الصغير كبير ، وإنما هي ثُلْمٌ ^(١) يتسلمها العجز والتضييع ، فإذا لم تُسَدَّ أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق . كلامُ اللبيب وإن كان نَزْرًا أدب عظيم ، ومقارفة ^(٢) المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة . لا بمنعك صغر شأن امرئ من اجتناب ما رأيت من رأيه صواباً ، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً ، فإن اللؤاؤة الفائقة لا تُهان لوان غائصها الذي استخرجها . أعدلُ السير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتَى إليك . حقٌ على العاقل أن يتخذ مرآتين فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحكيمهم بها ويأخذ ما استطاع منها . عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هَوَى ، والهوَى آفة العفاف . من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه فإنه من خفي عيبه عليه خفيت عليه محاسن غيره ، ومن خفي عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف ، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصرها أبداً . لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذي قد علم دواء نفسه ، فإذا هو لم يتداو به لم يُغثه علمه . والرجل ذو المروءة قد يُكْرَم على غير مال كالأسد الذي يهاب وإن كان عَقِيْرًا ^(٣) ، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكتّاب الذي يهون على الناس وإن طُوّقَ وَخُلُخِلَ ^(٤) .

وأكثرُ وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القِصَرِ وقلما يطرد فيها

(١) ثلم : جمع ثلمة وهي الخلل .

(٢) مقارفة : ارتكاب .

(٣) عقيراً : جريماً .

(٤) خلخل : وضع في رجله خلخال .

السياق . أما الأدب^(١) الكبير فرسالة^١ أكثر طولا إذ تمتد إلى نحو مائة صحيفة ، موزعة بين موضوعين كبيرين ، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم ، والصدقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح ، ونراه يصرح في تقديمه لهذه الرسالة بما صرّح به في أوائل الأدب الصغير من أنه يفيد في وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء ، إذ يقول : « منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسنا أن يقتدى بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع ... ولم نجدهم غادروا شيئا يجد واصف بليغ في صفة له مقالا لم يسبقوه إليه » . ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت في وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتهاها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم ، وأنه سيضمن كتابه أو رسالته منها أطرافا . ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما تنقل^٢ عن القدماء ممّا قرأه في الأدب الساساني السياسي والأخلاقي ، وإما استنبطات وصلّ إليها على هديهم ، وهو يستهل رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقى والاجتماعي والسياسي ، ثم يورد بعض الوصايا ان يتقلد شيئا من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أن يرضى ربه ومن فوقه من أصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية ، ويقول له : لا تلمس رضا الناس جميعا ، لأن ذلك شيء لا يدرك ، إذ بينهم من رضا الجور ومن رضا الضلالة ، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء ، ومن طريف ما يوصيه به قوله :

« لا تركز مباشرة جسم أمرك ، فيعود شأنك صغيرا ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعا ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم . . وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسديك إلى نصيبه من الدعة فأحسن قسمتهما^(٢) بين دعتك وعملك ، واعلم أنك ما شغلت من رأيك في غير المهم أزرى بالمهم . . وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة . واعلم أن من

(٢) قسمتها : أى قسمة الليل والنهار .

(١) انظره في رسائل البلاء ص ٣٩ وما بعدها .

الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكُلُوح^(١) والتقطيب في غير مَنْ أَعْضَبَهُ ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعموية لمن لم يكن بهم بعقوبته ، وشدة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر^(٢) لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد إعطائه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذر هذا الباب الحذر كله .

ويسترسل ابن المقفع في مثل هذه الوصايا للوالى ، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكّام ، ثم ينتقل إلى الصديق والصدّاق ، ويصور الخلال التي ينبغى أن يتصف بها في رأيه الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمه وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمدّ له يَدَ العَوْنِ في الشدة . ويستطرد إلى الحديث عن جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغى من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه ، ويُفيض في الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التي تنفرّ الناس من صاحبها فضلا عن الصديق ، وما يسوقه في الطرفين قوله :

« انظُرْ مَنْ صاحبتَ من الناس من ذى فَضْلٍ عليك بسلطان أو منزلة ومَنْ دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والإخوان فوطّنْ نفسك في صحبته على أن تقبل منه العتْمُو ، وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قبّله غير معاتب ولا مستبطن ولا مستزيد ، فإن المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع ، وإن الرضا بالعمو والمسامحة في الخلق مقرب لك كلّ ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة . . ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى ، ولا تجرئن على تقريره وتبكيته بظفرك إذا استبان وججتك إذا وضحت . وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ، والوعى لما يقول . . واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون ، بل

(٢) الخطر : الشرف .

(١) الكلوح والتقطيب : العيوس .

الرأى كله غرر^(١) ، لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة ، ولأنه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز ، بل ربما أعشى الخزمة^(٢) ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعل ذلك عليه لوما وعدلاً بأن تقول : أنت فعلت هذا بي ، وأنت أمرتني ، ولولا أنت لم أفعل ، ولا جرم لا أطبعك في شيء بعدها ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة . وإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك أو تركه فبدأ صوابك فلا تمنّ ولا تكثرن ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تلممه عليه إن كان استبان في تركه ضرراً بأن تقول : ألم أقل ، ألم أفعل ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .. واعلم أن من تنكّب الأمور ما يسمى حذراً ، ومنه ما يسمى خوراً فإن استطعت أن يكون تجنبك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعل ، فإن ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تهيبه ، فإن ذلك هو الخور ، وإن الحكيم لا يخوض نهراً ، حتى يعلم مقدار قعره .

وردّد محمد كرد علي في نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرّة اليتيمة ، وهما كتابان لا كتاب واحد ، كما يشهد بذلك كلام البافلاقي عن اليتيمة الذي سبق أن نقلناه عنه ، وفيه أنها قسمان قسم في الحكم المنقولة ، وقسم في شيء من الديانات ، وليس في الأدب الكبير حديث عن الديانات ، إنما هو حديث كما رأينا عن السلطان والصدّاقة . وما يقطع بأن الدرّة اليتيمة ليست هي الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ في كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بقطعة طويلة من صدرها لا توجد في الأدب الكبير ، ونرى ابن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة ، وأنه سيجيبهم عما سألو ، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول ، وهو يدور على الزمان ، وقد أجابهم بأن الزمان الناس ، وهم رجلان ، وال ومولّى عليه . وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام : قسم هو خير الأزمنة لصلاح الحاكم والمحكومين ، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفسّد المحكومون ، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم ،

(١) غرر : خداع .

(٢) الخزمة : جمع حازم .

وقسم رابع هو شر الأزمنة لفساد الحاكم والمحكومين جميعا ، وفي الأول يقول^(١) :
 « خيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فكان الإمام مؤدياً
 إلى الرعية حقهم : في الرد عنهم والغليظ على عدوهم ، والجهاد من وراء بيضتهم^(٢)
 والاختيار لحكامهم ، وزولية صلحائهم ، والتوسعة عليهم في معاشهم ، وإفاضة
 الأمن فيهم ، والمتابعة في الحق لهم ، والعدل في القسمة بينهم ، والتمويم لأودهم^(٣)
 والأخذ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم . وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه في
 المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في أمره ، والصبر عند مكروه طاعته ،
 والمعونة على أنفسهم ، والشدة على من أخل بحقه وخالف أمره ، غير مؤثرين
 في ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابسين^(٤) عليه أحدا . فإذا اجتمع ذلك في
 الإمام والرعية تم صلاح الزمان ، وبنعمة الله تم الصالحات »

ويظهر أن الأسئلة الأولى في الرسالة كانت تخوض في السياسة ، وتلتها أسئلة
 كانت تخوض في شئون الديانات ، ولعل ذلك هو الذي جعل الدرّة اليتيمة تسقط
 من يد الزمن ، وكأن الناس تحاموا تداولها . أما رسالة الصحابة^(٥) فهي في صحابة
 السلطان وبطانته ومن يستعين بهم في حكمه من جنده وما ينبغي له في سياسته
 إزاء رعيته ، كتب بها إلى المنصور ، وكأنه يضع له دستوراً للحكم ، وقد استهلتها
 بمدحه وبيان فضله على خلفاء بني أمية وما تحلّى به من تشجيع ذوى النصح
 والرأى على الإدلاء بنصائحهم وآرائهم فيما يعود على الأمة بالنفع والخير . ثم أخذ
 في تصوير الدستور الذي يريد من المنصور اتباعه في حكمه ، واصفاً حسن
 سياسته ، إذ اقتلع الولاة والأعوان المفسدين ، واجتمعت حواه قاوب الرعية لما
 اشتمل عليه من حسن العفو واللين . ولم يلبث أن تحدث عن الجند ، ومعروف
 أن الجند حينئذ كانوا خراسانيين في جمهورهم ، ومن ثم أخذ يشيد بجند خراسان
 وأنه لم يدرك مثلهم في الإسلام لما امتازوا به من الطاعة والفضل والعفاف والكف
 عن الفساد والإعطاء عن يد الولاة والحكام ، ومن أجل ذلك كانت تجب العناية

(٤) لابسين هنا : متدينين ، وأصل لبيس

المقوم التلي بهم زناً .

(٥) انظر في هذه الرسالة رسائل البلاغ، ص

١١٧ وجمهرة رسائل العرب ٢٥/٣ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٤٩/٣ .

(٢) البيضة : حوزة كمل شئ، راحة ، الصوم

والمراد بلدهم .

(٣) الأود : الاعوجاج .

بهم بوضع قانون لهم ، يوضح في دقة واجباتهم وما ينبغي أن يفعلوه وما ينبغي أن يذروه ويتجنبوه ، وأن مثلهم مثل الخليفة ينبغي أن يطيعوا الدين وأوامره ونواهيته ، كما يطيعون الخليفة في الأحداث المتجددة من إعلان حرب أو مهادنة أو تنظيم أمور حادثة . وما يُنظَرُ فيه لصالح الجند أن لا يولّى أحد منهم على شيء من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، إذ يخرجهم عن وظيفتهم الحربية ، ويشغلهم بأمور المال والدراهم والدنانير . ولفت المنصور إلى أن من عليهم من هم خير من قادتهم . ولذلك ينبغي أن يعيد النظر فيمن جعلهم منهم قادة ، فيردّ بعضهم عن القيادة ويوليها الكفاء المجهول من الجند. وطلب إليه أن يُعنى بتعليمهم القرآن والتفقه في السنة وأن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة من الأمانة والعفاف والتواضع والبعد عن الهوى وأن يجتنبوا الترف في المطعم والملبس ، كما طلب إليه تعيين مواقيت محددة لأرزاقهم ورواتبهم وأن يتفصّى أحوالهم بثقات لا يكتمون عنه منها شيئاً . وانتقل ابن المقفع من الجند إلى أهل العراق عامة وأهل البصرة والكوفة خاصة ، لأنهم شيعة العباسيين . وتحدث عن تفوق أهل العراق على غيرهم في الفقه والعفاف والعقول والفصاحة ، وهم لذلك خير من يستعين بهم المنصور في دولته ، وكان الأمويون قد حرّموا من تدبير الحكم مع أنهم أهله ومستحقوه . وأوصاه - كما أوصاه في الجند - أن يتتبع خيارهم من المجاهيل عنده ، فيسند إليهم شئون الدولة ، ويردّ عنها من وقع فيهم الخطأ ومن اختيروا دون تثبت وفحص كاف . وسرعان ما عرض لفوضى القضاء الناشئة عن كثرة الاختلافات بين الفقهاء ، حتى ليُحكّم في القضية الواحدة بحكمين مختلفين أو أحكام مختلفة لا في البلاد المتباعدة بل في البلد الواحد ، واقترح لدرء هذه الفوضى أن يضع المنصور قانوناً يلتزمه القضاء على اختلاف منازعهم الفقهية ، سواء أكانوا ممن يقدّمون الرأي ويعتدّون به أو كانوا ممن يقدمون السنة ويعتدّون بها ، ويسخّروا من الأخيرين ، إذ تمادوا في الأخذ عن التابعين وخلفاء بني أمية مسمّين ذلك سنّةً ، مما دفع إلى هذا الاضطراب الواسع في الأقضية ، يقول :

« وما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها

أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال ، فَيُسْتَحَلُّ الدَّمُ والفَرْجُ بالحِيرة ، وهما يَحْرَمَانِ بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة ، فَيُسْتَحَلُّ في ناحية منها ما يَحْرَمُ في ناحية أخرى . غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحُرْمَتهم ، يقضى به قضاة جازر أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لَجَّ بهم العجب مما في أيديهم والاستخفاف بمن سواهم ، فأقبحهم ذلك في الأمور التي يَتَّبِعُ (١) بها من سمعها من ذوى الأبواب . أما من يدعى لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنةً ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذى يزعم أنه سنة ، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول : هُرِيْقُ (٢) فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له : أى دم سفك على هذه السنة التى تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبد الملك ابن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء . وربما يأخذ بالرأى ، فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسم من أمر المسلمين قولاً ، لا يرافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه ، وهو مقرر بأنه رأى منه ، لا يحتج بكتاب ولا سنة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذى يُلهمه الله ، ويعزم عليه عزماً ، وينتهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتاباً جامعاً أرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ، وأرجونا أن يكون اجتماع السنن قرينةً لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخر الدهر ، إن شاء الله .

ومضى ابن المقفع يذكر أن اختلاف الأحكام إذا كان يرجع إلى سنن مأثورة غير مجمع عليها فينبغى الأخذ بما هو أشبه بالعدل ، وإذا كان يرجع إلى استخدام الرأى والقياس ، فإن القياس قد يخطئ ، وليس المدار على القياس في حد ذاته ،

(٢) هريق : لغة في أريق .

(١) يتبع : يبعج .

وإنما المدار على ما يقود إليه فإن قاد إلى حسن أخذ به وإن قاد إلى قبيح ترك ،
 إذ المراد ليس عين القياس ، وإنما المراد إحقاق الحق لأهله . ولعل هذه الدعوة
 إلى إصلاح التشريع وجمع السنن والأحكام والأقضية ووضع قانون عام للقضاء
 هي التي دفعت المنصور ليطلب إلى مالك أن يؤلف في الفقه كتابه « الموطأ »
 وقد قال له : إني أريد أن تُرسل لي به لأكتب منه نسخاً يرجع إليها الناس في
 الأمصار ، غير أن مالكاً لم يرتض الفكرة ، لأن المسلمين في كل بلد رويوا من
 السنة النبوية ما دأبوا به ، غير أنه ألف « الموطأ » وذاعت أحكامه الفقهية في
 الحجاز ، وفي كثير من الأمصار وخاصة في مصر والمغرب والأندلس . ويدعو
 ابن المقفع بعد ذلك المنصور إلى العطف على أهل الشام مع ما يكتونه للدولة من
 عداوة ، لستبها السلطان منهم ، وأن يصطنع خيارهم ، فيتبعهم في محبة الدولة
 غيرهم ، وتأخذ دائرة هذه المحبة في الاتساع . ويطلب إليه أن يرد عليهم قسيثهم ،
 حتى يدعوا للدولة عن رضا ، وحتى تهدأ نفوسهم فلا تكون منهم وثبات ولا
 ثورات . ويتحول ابن المقفع إلى بطانة الخليفة ورجال دوائه ويطلب إليه أن يعيد
 النظر فيهم ، فإن بينهم كثيرين ليسوا بذوى بلاء ولا فيهم غناء ، بل بينهم
 من اشتهروا بالفجور والأعمال القبيحة ، مع أن منهم من يصرف أمور الدولة ومن
 يعمل في دواوينها . وحري بالخليفة أن يجعل أساس اختياره لحاشيته الأمانة ،
 والعدالة وجودة الرأي وأن لا يقرب منه إلا من صنع مكرمة عظيمة أو أبلى بلاء
 حسناً ، أو عُرف بأصالة رأيه وحصافته أو كان عالماً ينتفع الناس بعلمه ،
 وعليه أن يجعل لكل منهم اختصاصاً في عمله لا يتعداه . ونصحه بأن يستخدم
 أهل بيته ويُسند إليهم جسام الأمور والأعمال . ثم وقف عند الخراج أو بعبارة
 أخرى الضرائب المفروضة على الأراضي والضياح في الدولة ، واقفت المنصور إلى
 ما فيها من فوضى ، إذ ليست هناك قواعد مقررة ، وكل عامل يفرض الضريبة
 حسب مشيئته ، ودعاه إلى وضع وظائف ثابتة على كل أرض وكل ضيعة ،
 وبذلك يقف ظلم العمال ويأمن الزراع على عمارة ضياحهم وأراضيهم ، كما دعاه
 إلى تخير عمال الخراج وتفقدهم واستبدال من تظهر عليه خيانة . وتحدث عن
 أهل الجزيرة العربية من الحجاز واليمن ومن وراءهم من البدو ، وطلب إلى

المنصور أن تسخو نفسه عن أموالهم من الصدقات وغيرها مما يجسبي منهم، وكأنه نظري ذلك إلى فقر بلادهم وجدد بها وأنهم كانوا مادة الإسلام والفتوح . ودعاه إلى أن يولى عليهم الخييار من أهل بيته . وطلب إليه أخيراً أن يعين في الأمصار طائفة من الفقهاء والمحدثين النابتهين تكون مهمتهم تأديب العامة وتبصيرها الخطأ ومنعها من البدع والفتن ، وبذلك رشح ابن المقفع لقيام وظيفة المحتسب في الدولة العباسية ، وكان يُعهدُ إليه بمراقبة الأسواق والحكم فيما ينشأ فيها من منازعات وجنايات وما يكون من خطأ في البيع والشراء أو نقص في المكايل والموازين .

وقد يكون ابن المقفع تأثر في هذه الرسالة ببعض أنظمة الحكم الساسانية وبما سمعه عن قانون جوستينيان الروماني ولكن من المحقق أنه صدرَ فيها عن فطنة وقوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية في عصره وما حذقه من شئون السياسة التي استوحاها مما قرأه عند الأوائل . ودائماً لا نستطيع أن نُخفيه في كتاباته من التأثير بالثقافات الأجنبية إذ كان أكبر من اطلعوا عليها في عصره ، وكان ذهنه من الخصب ، بحيث يستنبط كثيراً من الآراء والأفكار وخاصة ما يتصل بالإصلاح الاجتماعي والسياسي . ولعل هذا الإصلاح الذي كان ينشده للدولة العباسية هو الذي دفعه إلى ترجمة القصص الخيالي الهندي ، أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة ، ويقال إنها نُقلت في عهد كسرى أنو شروان من الهندية إلى الفهلوية ، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية ، من مثل « بسنج تانرا » ومثل « هتو بادشا » ووجدوا منها بعض أصول في « المهابهارتا » مما يؤكد أنها هندية الأصول ، بل يثبتها إثباتاً قاطعاً^(١) . ورجح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد في الكتاب بعض الفصول والقصص ، ولكن ربما زاد ذلك بعض من جاء بعده ، إذ تُرجم الكتاب مرارا ، شعراً ونثراً ، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذي وضعه بين يدي القصص وسماه « عرض الكتاب » وذكر البيروني قديماً أنه زاد أيضا باب برزوه « قاصدا تشكيك ضعفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية ، وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل^(٢) »

(١) مقالة كليلة ودمنة (طبع دارالمعارف) (٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٦ .
ص ٣٥ وما بعدها .

غير أن أبحاث المحدثين أثبتت أن هذا الفصل كان موجوداً في الأصل الفارسي ، مما يجعلنا نظن أن أصحاب الدعوة المانوية من الفرس استغلوا الكتاب قبل نقله إلى العربية في الدعوة لمذهبهم المانوي .

ومشعلُ ابن المقفع في ترجمة هذا الكتاب مثلهُ في ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والخلقية يصبُّ في دقة المعنى الذي يترجمه في القوالب العربية التي تلامحه وتلائم الذوق العربي ، بحيث خيَّل إلى كثير من القداماء أن كل تلك الترجمات من تأليفه وتصنيفه ، إذ لم يجدوا أى فارق في الصياغة بين ما يترجمه وينشئه . وحقاً حمل عليه الجاحظ في ترجمته لمنطق أرسطو ، إذ لاحظ في ألفاظه قصوراً أحيانا عن أداء المعاني المنطقية^(١) ، وهو قصور منشؤه صعوبة أداء هذه المعاني لأول مرة في العربية ، ومهما يكن فله فضل الرائد . وهو إن فاته التوفيق في نقل المنطق الأرسططاليسي فإنه لم يفته في بقية ترجماته ، وأمامنا كليلة ودمنة التي لا تُعَدُّ آية من آيات بلاغته فحسب ، بل تعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق . وفي رأينا أن غَضَّ الجاحظ من ترجمته لمنطق أرسطو هو الذى دفع طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر » إلى التشكك في مقدرته على أداء المعاني الدقيقة العميقة حتى ليقول عنه : « له عبارات من أجود ما تقرأ في العربية وبنوع خاص في الأدب الكبير وفي كليلة ودمنة ، ولكنه عند ما يتناول المعاني الضيقة التي تحتاج إلى الدقة في التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة »^(٢) ويبلغ من إزرائته عليه أن يقول إنه « كان مستشرقاً كغيره من المستشرقين يحسن اللغة العربية فهما ، وربما أعياه الأداء فيها » ويستشهد لذلك بأمثلة من رسالة الصحابة والأدب الكبير ، كل ما يلاحظُ عليها اضطرابٌ في بعض الضمائر ، وكأنه نسي أن الرسالتين تداولتهما أيدي النساخ بعد ابن المقفع وأنه ربما دخلها هذا الارتباك من أيديهم . والحق أنه أسرف في إزرائته عليه وفي عدده مستشرقاً كالمستشرقين الغربيين في عصرنا ، فهؤلاء لا ينشأون في بيئات عربية كميثة البصرة التي نشأ فيها ابن المقفع ، وهم لا ينقلون إلى العربية آثار قومهم الأدبية على نحو ما كان ينقل ابن المقفع عن

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٤٨ وما بعدها

(١) الحيوان ١/٧٦ .

الفارسية ، ثم هم لم يوظفوا في الدواوين العربية ولم يعملوا فيها كتباً يكتبون الرسائل السياسية الرسمية ، على نحو ما وُظّف ابن المقفع . ولم يكن كاتباً فحسب بل كان أيضاً يحسن صوغ الشعر العربي ، وقد أجمع معاصروه على أنه كان آية في البلاغة ، وجعلوه على رأس البلغاء العشرة الذين سُمّوهم في هذا العصر^(١) ، وبلغ من إعجابهم به أنهم كانوا يكثرون من أسئلته عن البلاغة ، على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، ونفسُ الجاحظ يقول في بعض رسائله إن الكتاب الناشئين كانوا يتدارسون آثاره ليحذّوا البيان ويلقحوا عقولهم وألستهم بخير لقاح^(٢) .

ولم يكن ابن المقفع بليغا فحسب ، بل كان أكبر بلغاء عصره ، إذ استطاع أن يملأ أواني العربية بمادة أجنبية غزيرة ، دون أن يُحدّث فيها انحرافاً من شأنه أن يجرّ ضرباً من الازدواج اللغوي ، إذ من المعروف أن لكل لغة صياغتها وأماطها الخاصة في التعبير ، ولها أيضا صُورُها وأخيلتها التي قد تستعصى على الأداء في لغة أخرى . وشيء من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع ، فقد استطاع أن يحتفظ للعربية في ترجماته بمقوماتها الأصلية ، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية ، بحيث لا نحسُّ عنده نُبوّاً ولا انحرافاً ، مما يشهد له بقدرته البيانية وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السايقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية .

والحق أنه كان آية في البلاغة وجزالة القول وحرصاته مع سهولته ، وقد نصح مرة لبعض الأدباء ، فقال له : « إياك والتبع لوحشى الكلام طمعاً في تَمِيلُ البلاغة فإن ذلك در العبيّ الأكبر » . ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته لسائل سأله عن البلاغة فقال : « دى التي إذا سمعها الجاحل ظنّ أنه يحسن مثلها » .

والمسألة لا تقف عند وصفه بالبلاغة ، فهي أوسع من ذلك وأبعد مدى ، إذ كان من أوائل من ثبّتوا الأسلوب الكتابي العباسي المولّد ، وهو أساوب يقوم على الوضوح وأن تشفّ الألفاظ عن معانيها وأن تخلو من كل غريب وحشى ومبتذل

(٢) ثلاث رسائل الجاحظ (طبعة فتكل) ص ٤٢ .

(١) النهري ص ١٨٢ .

عامى . ولم يتقصر ابن المقفع هذا الأسلوب على ما ينشئه من رسائل ديوانية أو إخوانية ، بل عممه في ترجماته ، وبذلك وطّده أقوى توطيد ومكّن له أوسع تمكين ، إذ جعله أسلوب النثر العام في العصر مهما اختلفت فنونه . وكانت غزارة معانيه سبباً في أن يتميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، فالألفاظ بقدر المعاني لا تنقص ولا تزيد ، والمعاني تؤدّى أداءً فصيحاً رصيناً ، دون قصد إلى الجمال التعبيري من سجع أو ترادف صوتى . ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهه جمال القرآن وصياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً في جوانب كتاباته حتى في التخصص الحيوانى قصص كليلة ودمنة ، وطبيعى أن تبلغ هذه الاستعارة عنده الغاية في تحميداته التى كان يفتح بها الرسائل السياسية الرسمية والتي كان يعظم فيها الدين الحنيف على نحو ما نرى في هذا التعميد^(١) :

« الحمد لله ذى العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذى لا يُعجزه شيء »
 ولا يمتنع منه ، ولا يُدفعُ قضاؤه ولا أمره : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون) . والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه ، ودبّر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرته منها عليها وملائكته^(٢) منه لها (لا معقب لحكمه) ولا شريك له فى شيء من الأمور (يخلق ما يشاء ويختار) وما كان للناس الخيرة فى شيء من أمورهم (سبحان الله وتعالى عما يشركون) . والحمد لله الذى جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذى ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده ، فقام به ملائكته المقربون ، يعظّمون جلاله ويقدمون أسمائه ويذكرون آلاءه لا يستحسرون^(٣) عن عبادته ولا يستكبرون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه فى أرضه يطيعون أمره ويذنبون عن محارمه ، ويصدّقون بوعدده ، ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهلون عدوه . وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه^(٤) حجّتهم وإعزازة دينهم وإظهاره حقهم وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعلوهم عند ما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسه ، وانتقامه منهم وغضبه عليهم . مضى على ذلك أمره ونفذ فيه قضاؤه

(١) يستحسرون بالشيء : يعيا به .

(٢) ملائكة : ملك .

(٣) إفلاجه : نصره .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٥٣/٣ .

فِيَا مَضَى ، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بَقِيَ (لِيُسَمَّ نوره ولو كره الكافرون)
 و(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . والحمد لله الذي لا يقضى في الأمور
 ولا يدبرها غيره ، ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته ، وهو وليُّها ومنتهاها ، ووليُّ الحيرة
 فيها والإمضاء لما أحبَّ أن يمضى منها (يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الحيرة
 سبحانه الله وتعالى عما يشركون) . والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ، ذى
 المَنِّ والطَّوْلِ (١) والقُدرة والحَوْل (٢) ، الذى لا ممسك لما فتح لأولياته من رحمته ،
 ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نعمته ، ولا رادَّ لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء ،
 ويُحَكِّم ما يريد . والحمد لله الميثب بحمده ومِنِّه ابتداءه ، والمنعم بشكره وعليه
 جزاؤه ، والمنفى بالإيمان وهو عطاؤه .

والآيات المقتبسة من الذكر الحكيم كثيرة فى هذا التحميد ، وقد وضعناها بين
 أقواس لتتضح مواضعها ، ووراءها ألفاظ كثيرة مستمدة من القرآن الكريم . وبدأ
 عنده هنا شيءٌ من السجع الذى يأتى عفواً سمحاً ، وكأنما ابتغى هنا التمنيى بأكثر
 مما كان يبتغيه فى ترجماته . ونحن نسوق طائفة من رسائله الإخوانية ليتضح لنا
 ما كان يبذل فيها من جهد فنى ، وأول ما نذكر منها تهنئة بمولودة لأحد أصدقائه
 على هذا النمط (٣) :

« بَارِكَ اللهُ لَكُمْ فى الابنة المستفادَة ، وجعلها زِينَةً ، وأجرى لكم بها خيراً ،
 فلا تكرهها ، فإنهن الأمهات والأخوات والعَمَّات والخالات ، ومنهن (الباقيات
 الصالحات) ورب غلامٍ ساء أهله بعد مسرتهم ، وربَّ جارية فرحت أهلها
 بعد مساءتهم »

واقتبس هنا من القرآن كلمة (الباقيات الصالحات) وعنى بالإيجاز والاقتصاد
 الشديد ، وما كتبت به فى التعزية عن ولد (٤) :

« إِنَّمَا يَسْتَوْجِبُ عَلَى اللهِ وَعده مَنْ صَبَرَ اللهُ بِحَقِّه ، فلا تجمعنَّ إلى ما فُجِعت
 به من ولدك الفجيجة بالأجر عليه وال عوض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ،
 وأُنكى المَرزُؤَتَيْنِ (٥) لك ، أخلف الله عليك بخير ، وذخر لك جزيل الثواب . »

(٤) جمهرة رسائل العرب ٥٨/٣ .

(٥) المرزوتين : المصيبتين .

(١) الطول : الإتمام .

(٢) الحول : القوة .

(٣) جمهرة رسائل العرب ٥٧/٣ .

والدقة المنطقية واضحة في هذه الرسالة مع ما يجرى فيها من طرافة التفكير ، فقد جعل الجزع على الولد فجيحة لا تقل عن فجيحة فقدته ، بل جعلها أعظم وأنكى ، إذ تحرم صاحبها الثواب . وتلطّف فدعا لصاحبه أن يعوضه الله من ولده ويخلف عليه بخير منه ؛ ومن رسائله الإخوانية البديعة ما كتب به إلى بعض إخوانه يستقصيه حاجة^(١) :

« أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم ، والمعروف إذا وُضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لِعَقَبِيهِ من بعده . وكتبت إليك ، ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة ، أول ما فيها معروف ، تستوجب به الشكر علينا ، وقد خِبرُ به الأيادي قِبَلِنَا » .

ودقة التفكير واضحة في الرسالة ، فقد جعل قضاء أخ لأخيه حاجة ليس مِمَّا يؤديه إليه ، وإنما يؤديه إلى نفسه ، لقيامه بحقوق أخيه ونهوضه بواجبه نحوه . ويتحدث عن بذل المعروف ، ويتبادر إليه جحود بعض الناس ، فيقول إن المعروف غَرَسٌ لا بد من حصاده حتى عند من يجحدون ولا يشكرون . ومرت بنا في الفصل السالف رسائل إخوانية تحوّل بها بعض الكتّاب إلى ما يشبه رسائل أدبية تصف الأخوة والصدّاقة من حيث هما مفصّلة صفاتهما وشرائطهما ، ولابن المقفع قطعة أدبية بديعة في وصف أحد إخوانه ، وفي رأينا أنه لم يصف فيها أخاً بعينه ، إنما وصف المثل الأعلى للأخ الكامل ، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل ، وهي تمضي على هذه الشاكلة^(٢) :

« إني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظمه عندي صغراً الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يكتسب إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فرجه ، فلا يدعو إليه ريبة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يتأشّر^(٣) عند نعمة ، ولا يستكين عند

العرب ٦٠/٣ .
(٢) يَأْشُرُ : يبطر .

(١) جمهرة رسائل العرب ٦٠/٣ .
(٢) انظر هذا الوصف في آخر الأدب الكبير .
وفي زهر الآداب ١٧٩/١ وفي جمهرة رسائل

مصيبة . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى^(١) فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا نطق بَدَّ القائلين . وكان يُرَى ضعيفاً مُسْتَضْعَفاً، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو اللَّيْثُ عادياً . وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في مِرَاء ، ولا يُدلى بحجة ، حتى يررى قاضياً فَهَيْمًا وشهوداً عدولاً . وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العُدْرُ في مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرم ، ولا يتسخط ، ولا يتشكى ، ولا يتشهى . وكان لا ينقم على الولي ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تُطيق ، ولكنَّ أَخَذَ القليل خَيْرٌ من تَرَكَ الجميع .»

وواضح أن هذا الوصف للرجل الكامل وخصاله يُعدّ درة ثمينة من درر البلاغة العباسية ، ومن الخطأ البين أن يقال عن صاحبه وصاحب النصوص التي أسلفناها إنه كان كأحد المستشرقين يتعثر في أساليبه وتضطرب لغته ، ويعيبه أحياناً الأداء السليم ويستعصى عليه استعصاء ، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له ، وكان أعجوبة زمانه في البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً ، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة .

٢

سهل بن^(٢) هرون

هو سهل بن هرون بن راهبوني كما جاء في البيان والتبيين، وفي كتاب البخلاء

(١) يمارى : يجادل .
والتنبيه والإشراف للسمودي (طبع ليدن)
ص ٧٦ وعيون الأخبار ٢٥/٣ ، ١٣٨ ،
١١٢/٤ وشرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرين
(طبعة دوزي) ص ٢٤٣ والعقد الفريد ٥٨/٥
وفي مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وفوات
الوفيات ١٨١/١ وشرح العيون في شرح رسالة=

(٢) أنظر في ترجمة سهل وأخباره البيان
والتبيين ٥٢/١ ، ٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٣٨ ،
٣٤٦ ، ٢٩/٣ والحيوان ٣٧٤/٢ ، ٦٦/٣
و٤٦٦ ، ٦٠٣/٥ ، ٢٠٢/٧ والفهرست
ص ١٧٤ وزهر الآداب ٢٥٧/٢ - ٢٥٩

« راهبون » وفي الفهرست « رامنوی » وفي حياة الحيوان للدميري « راهويه » . وهو فارسي الأصل ، وعلى نحو ما اختلف الرواة في اسم جده اختلفوا في مسقط رأسه ، فقيل إنه من أهل دَسْتَمِيَّان ، وهي كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، وقيل إنه من أهل مَيَّسَان قرية بتلك الكورة ، وقيل إنه من أهل نيسابور . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وأغلب الظن أنه وُلِدَ حوالي منتصف القرن الثاني الهجري ، وقد ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة ، وأقبل على التزود من يتابع الثقافة التي كانت منبثّة بها ، وخاصة علم الكلام وما نُقِلَ عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية ويونانية وهندية ، وأخذ هو نفسه يشارك في ترجمة بعض الرسائل عن لغته الأصلية . وتجذبه بغداد إليها آملاً أن ينال بها شيئاً من المجد والشهرة ، وسرعان ما يقرّبه يحيى البرمكي وزير الرشيد منه ، فيُلْحَقه بالدواوين ، حتى إذا أسس الرشيد دار الحكمة عُيِّنَ بها للإشراف على بعض الكتب وبعض ما كان يُتَرْجَمُ فيها من الآداب الأجنبية ، إذ كان أحد النقلة النابيين من لسانه الفارسي إلى العربية .

وفي أثناء صلته بالبرامكة وبعد نكبتهم سنة ١٨٧ للهجرة انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين الفضل بن سهل مدبر شؤون المأمون ومستشاره وكاتبه ، فقدّمه إلى المأمون ، فأعجب ببلاغته وصحة منطقته وذكائه ، حتى إذا تحوّلت الخلافة إليه وأخذ يعنى بشئون دار الحكمة عنايته الواسعة المعروفة ، إذ حولها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة ، جعله قيماً على خزائن كتب الفلسفة التي جُمِلت من قبرص ، ليشرّف على نقلها إلى العربية . وكان يلزم المأمون في مجالسه وندواته التي كان يعقدها لكبار العلماء والمتكلمين ، وما زال خازناً بدار الحكمة حتى توفي سنة ٢١٥ للهجرة .

واشتهر سهل في زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سماه معاصروه بزرّجهمر الإسلام ، إشارة إلى أنه يجل في العربية محل بزرجمهر في الفارسية وما أثرعنه من حكم وأمثال كثيرة ، ووصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلاً في نفسه عتيق الوجه ^(١) ، حسن الشارة ، بعيداً من الفدامة ^(٢) ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة

(١) عتيق الوجه : جميل .

(٢) الفدامة : العي .

= ابن زيدون لابن نباتة (نشر دار الفكر العربي)

ص ٢٤٢ وحياة الحيوان للدميري ١/٥١٣

وحولية الجامعة التونسية العدد الأول سنة ١٩٦٤ .

وبرقة الذهن قبل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبيل قبل
التكشف (١) « ووصفه الحسن بن سهل وزير المأمون فقال : « وازن
العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ،
كالغيث أين وقع ، وكالشمس حيث أولت ، أحييت ، وكالأرض ما حملتها
حملت ، وكالماء طهوراً للتمسه وناقع لغلته من حَرَّ (٢) إليه ، وكالحواء الذي
تُقَطِّفُ منه الحياة بالنسيم ، وكالنار التي يعيش بها المَقْرور ، وكالسماء التي
قد حسنت بأصناف النور » . ويقول ابن النديم إنه كان « شعوبى المذهب ،
شديد العصية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل في البخل » وكأنه
أراد بتلك الرسائل أن ينقض فضيلة الكرم العربية . وكان البخل سجية وطبعاً
ركب فيه ، ورُويت عنه في ذلك نوادر كثيرة ، منها أن شخصاً لقيه ، فقال له :
هَبْ لِي ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخي ، قال : درهم ، فقال سهل :
لقد هَوَّت الدرهم ، وهو طائع الله في أرضه لا يَعْصِي ، وهو عشر العشرة ،
والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى إلى أين
انتهى الدرهم الذي هَوَّته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم . فانصرف
الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت سهل . ومن حكاياته العجيبة في البخل ما حكاه
دِعْبِل ، قال : « كنا عنده يوماً ، فأطلقنا القعود ولم نَسْبِرْ ح ، حتى كاد يموت
جوعاً ، فلما اضطررناه قال : يا غلام ويلك غَدَدْنَا ، فأتاه بصَحْفَةٍ فيها مَرَقٌ ،
تحتة ديك هرم لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فأطَّلَع في الصحفة
وقلَّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلَّب جميع ما في القصعة ، حتى
فقد الرأس من الديك . فبقى مطرقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين
الرأس ؟ فقال : رميتُ به ، قال سهل : ولم رَمَيْتَ به ؟ قال : لم أظنك تأكله ،
قال : ولأى شيء ظننت أني لا آكله ؟ فوالله إني لأمقت من يرى برجليه ، فكيف
من يرى برأسه ، ثم قال له : لولم أكره ما صنعته إلا للَطَّيْرَةِ (التشاؤم) والفعال
لكرهته ، الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، واولا صوته ما
أُريد ، وفيه فَرَقَه الذي يتبرك به ، وعينه التي يُضْرَبُ بها المثل ، يقال شراب

(٢) حر : عطش ، والصفة حران .

(١) البيان والتبيين ١/٨٩ .

كعين الديك في الصفاء ، ودماغه عجيب لوجع الكُلْبِيَّةِ ، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه ، فهلا إذ ظننت أني لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلِكَ أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعتق ؟ انظر أين هو ؟ قال : والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال سهل : لكني أدرى أنك رميتَ به في بطنك ، واللهُ حسيبك . ولعل في هذه النادرة وسابقتها ما يدل على ظرفه ، وهو ظرف كان يشوبه بالفكاهة الخلوة أحياناً ، وأحياناً بالسخرية المرة ، من ذلك أنهم قَصَّوْا عنه أنه حدث بعض الأمراء ، فقال له كذبت ، فأجابه على البديهة : إن وجه الكذاب لا يقابلك ، يعني أن الأمير هو الكذاب ، لأن وجه الإنسان لا يقابله . وطلب إليه أبو الهذيل العلاف المتكلم المشهور أن يكتب له رسالة إلى الحسن بن سهل يوصيه فيها به ، فلبى طلبه ، ولما تقدم بها إلى الحسن وفضَّها وقرأ ما فيها أغرب في الضحك ، إذ وجد سهلاً ينهاه عن أن يمدَّ لأبي الهذيل العَوْنَ بأبيات تحيِّفه وتقبض يد قارئها عن مساعدته ، استهانتها بقوله :

إن الضميرَ - إذا سألتك حاجةً لأبي الهذيل - خلاف ما أبدي
فمنحه روح اليأس ثم امدد له حبل الرجاء بمخلف الوعد
حتى إذا طالت شقاوة جدِّه وعنائه فاجبته بالردِّ

وقال الحسن : هذه صفته لا صفتنا ، وأمر لأبي الهذيل بمال ، فعاد إليه ، وعاتبه ، فقال سهل : تُرَى أين عَرَبَ عنك الفهم ، أما سمعتَ قولي : « إن الضمير خلاف ما أبدي ، فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا . وهي مغالطة واضحة ، غير أنها تدل على قدرته العقلية في الإتيان بالحجة الصحيحة تارة ، والحجة المدخولة تارة ثانية .

وكان سهل يحسن القول نثراً وشعراً ، وفيه يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المدونة والأخبار المولدة سهل بن هرون بن راهبوني الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفراء في معارضة كتاب كليله ودمنة ، وكتاب الإخوان وكتاب المسائل

وكتاب الخزومي والهدلية وغير ذلك من الكتب . وذكر ابن النديم من كتبه أيضاً « كتاب النمر والثعلب ، وكتاب الواثق والعذراء ، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الضربين وكتاب الغزاليين وكتاب أدب أسل بن أسل وكتاب إلى عيسى ابن أبان في القضاء وكتاب تدبير الملك والسياسة » . وذكر ابن نباتة كتاباً له في سيرة المأمون .

ويظهر أنه عني في كثير من كتبه بالقصص على ألسنة الحيوان ، مشاكلة لكتاب كليلة ودمنة ، وكان من أهم ما وضعه في ذلك كتاباه : « ثعلة وعفراء » و « النمر والثعلب » وقد أشاد المسعودي بأولهما وقال إنه يزيد على كليلة ودمنة بحسن نظمه . وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعظة والتربية الاجتماعية والسياسية بما يفصل من الكلام وضرب الحكم والأمثال بالضبط كما صنع واضح كليلة ودمنة ، ولم يبق لنا من كتاب ثعلة وعفراء سوى هذه النصيحة :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظهرٌ على وهن العقيدة وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ومخجلٌ بالاختيار ، وليس في نفع تحمُّدُ به عوضٌ من فساد المروءة ولزوم النقيصة » .

ويقول الحصري بعد ذكره لهذه النصيحة: إن هذا الكتاب مملوء حكماً وعلماً . وعثر السيد عبد القادر المهيري حديثاً على كتاب النمر والثعلب ، ونشر مقتطفات منه مع مقدمة في العدد الأول من حولية الجامعة التونسية ، والكتاب ، أو بعبارة أدق القصة تدور على ثلاث شخصيات هي الثعلب الحكيم والذئب الجحود والنمر الطاغى ، وتتسلسل القصة تسلسلاً دقيقاً ، فالثعلب كان يعيش مع زوجته في وادٍ غير عليه زمان فيه ودو حسن الحال رضى البال ، ومرّ به ثعلب آخر ، فأنكر موضع جحره من الوادى ونصحه أن يتحول عنه ، مخافة أن يهجم عليه السيل ، واستشار زوجته ، فأبت عليه التحول ، ولم يلبث أن جاء طوفان من السيل حمله وحده إلى جزيرة لم يسمع بها حسيماً ، ولم ير أنيساً ، فبات ليلته طاوياً حتى أصبح ، وبينما يتلفت من حوله إذا ذئبٌ يمرُّ به ، فتعارفا ، وسرعان ما عرف منه أن الجزيرة تمتلئ بالطباء وبقر الوحش غير أنه لا يستطيع أن يصيدها ولا أن

يقربها ولا أن يتجاوز موضعه ، لخضوع الجزيرة وكل ما بها من وحش للملك طاغ باغ هو النمر الذى تجبر وتكبر . وقال له : إننى لا أكلمك الآن إلا فرعاً مرتعاً خشية أن يرانا ، فلننصرف ، ولنلتق غداً فى مكان خفى ، فالتقيا ، وأشار عليه الثعلب أن يقدم على النمر فيتلطف له ويطلب منه ولاية فى الجزيرة يقوم على حكمها ويشاطره خيراتها ، ويتخذ منه وزيراً يعينه على إدارتها . ويبدى الذئب خوفه من لقاء الملك الباطش ، وما يزال يشجعه حتى يلقاه . ويُعجبه حديثه وما عرض عليه ، فيعيّنه والياً على مناهل الأطباء . ونحن نسوق هذه القطعة من القصة لنلدل على أسلوب سهل وطريقته فى هذا القمص الحيوانى الخيالى ، وهى تحكى ما حدث بعد لقاء الثعلب للذئب فجأة واتفاقيهما على اللقاء ، وما كان بينهما من حوار فى هذا اللقاء ، وما أثمر الحوار للذئب من الولاية وللثعلب من الوزارة :

« انصرف الثعلب حزينا مغتماً لما حزره من عداوة النمر وعدم القوت ، ثم فكر فقال : إنما يُعرَفُ فضل عقل المرء فى شدائد الأمور ونوازل الخطوب ، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم والأحمق من العاقل ، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل سائرة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب وليس لمثل قوة على صيد الطباء وبقر الوحش ، وإنما يصيد كل امرئ [على] قدره ، وليس ههنا إلا طلب الحيلة . فلما أصبح الصبح قصد المكان الذى وعد الذئب فيه والتقيا هنالك عن رِقْبَةٍ (تحفظ) من النمر ، فقال له الثعلب يا أبا النمرأ كنت مهموماً بنفسى ، فزادنى اهتماماً ما أبثتنى من حديثك وأقيمت إلى من سوء حالك ، وههنا تدبيرٌ إن أعنتنى عليه بهمة صادقة ، فلعله أن يعود إلى صلاح ، فقال الذئب : وما هو؟ قال الثعلب : انت النمر ، فسئلته أن يولىك ولاية ترد عليك نفعاً وترد لك ذكراً وتكسبك حمداً ، قال الذئب : فأين ما أخبرتك عن بخله وشراسة خلقه ، وإنه لكما قال القائل : سواء ذو والعدم ، قال الثعلب : فأعلمه أنك لا تفيد شيئاً إلا بعثت إليه بشرطه فإن لك فيما بى منتفعاً وصلاًحاً ، فإن أجابك فلن تعدم منى معونة حسنة وقياماً بالذى يجب . وكن كما قال الشاعر :

وليس الرزقُ عن طلبِ حثيثٍ ولكن ألقِ دلوك فى الدلاء

تَجَنُّكَ بِمَلَكِهَا طَوْرًا وَطَوْرًا تَجِيءُ بِحِمَاةٍ وَقَلِيلٍ مَاءٍ^(١)

قال الذئب : يا أبا الصَّبَّاحِ إنه كان يقال : اتقوا مقارفة^(٢) الحريص الغادر ، فإنه إن رآك في التومة رأى منك أُنْحَبْتَ حالانك . وإن رآك في الفضول^(٣) لم يدعك وفضولك ، قال الثعلب : يا أبا الفراء : إنه ليس الرأى . . من عاش غير حامل الذكر والمنزلة إذا أفضل على نفسه وأصحابه فهو وإن قلَّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه في ضيق وقلَّ خيره على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عمره قصير العمر . قال الذئب : إنه كان يقال : أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا أهوج ولا يسلم منها إلا قليل : صحبة السلطان وإتقان النساء على الأسرار وشرب السمِّ على التجربة . قال الثعلب : قد يُسَلِّغُ الخَضَمُ بِالْقَضَمِ^(٤) ، ويركب الصعب من لا ذأول له . وليس يواظب على باب السلطان أحد ، فيلْتَقِي عن نفسه الأنفة ويتحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا خالص إلى حاجته من السلطان . قال الذئب : إنه كان يقال : لا تغتبط بسلطان من غير عدل ، ولا بغنى من غير فضل ، ولا ببلاغة من غير صدق ، ولا بجود من غير إصابة ، ولا بحسن عمل من غير خشية . قال الثعلب : إنه ينبغي للعاقل أن يدارى الزمان مداراة الرجل السابح في الماء الجاري ، وقال الممثل : أَرْضَى من المركب بالعلق . قال الذئب : السبب الذي يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذي يحول بين الخازم وطلبته . قال الثعلب : المال زيادة في القوت والرأى ، وليس الإخوان والأهل والأعوان إلا مع المال ، ولا يُظْهِرُ المروءة إلا المال ، لأن من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً فعد به العدم فقصر عنه . قال الذئب : إنَّ للسلطان سكرات ، فنهى الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، والسخط عمن يستوجب الرضا ، ولذلك قيل : قد خاطر من لَسَجَجَ في البحر ، وأشدُّ منه مخاطرة مَنْ صاحب السلطان . قال الثعلب : من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرغائب ، ومن ترك الأمر الذي لعله أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يُوقِّأه فليس ينال

(١) مثل معناه أن الذاية البعيدة قد تدرك

بالرفق . وأصل الخضم الأكل بجميع الفم ، والقضم : الأكل بأطراف الأسنان .

(١) الحماة : الطين الأسود .

(٢) مقارفة : مخالفة .

(٣) الفضول : جمع فضل وهو النعمة .

جسيماً ، وقد كان يقال : أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلا بمعونة ارتفاع همة وعظم خطر : صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو . فأعجب الذئب كلامه ، فأق النمر ، فشكر له ، وأقام بين يديه ، وكان لا يعرفه بمثل هذه الذلة . فافتتح الكلام ، فقال : أيها الملك إني لما أنا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك فوجدته خالياً من صالحى الأعوان وثقات الخدم ، ولما رأيت الملك كثير الكُلف عظيم المؤن رجب الفناء جزل العطاء ، وليس له من عبيده من يعينه على مثونته ويكفيه المههم من عمله نذبتُ نفسى للذى رأيتنى أقوى عليه من حسن السياسة وضبط الناحية التى أتولاها وردتُ المنفعة على الملك منها . فأعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده ، فقال له : صدقت وبرزت ، وأنا مستكفيك ومقلدك ، فأنظرُ كيف يكون ضبطك وكفائتك وغناؤك ووفائك بما شرطت على نفسك . اكتب له يا غلام عهداً على مناهل الظباء ، واجمع له أعمال ما هنالك ، فخرج الذئب إلى عمله ، واستخلف الثعلب وأحلّه محل الوزير الكاتب .

ومضى الذئب إلى ولايته مستصحباً وزيره ، حتى إذا دانت له رعيته واستتب أمره وتمكن سلطانه أمسك بما كان يرسله للنمر من الخيرات والطيبات ، وراسله النمر وذكره بعهوده ووعوده ، ولكنه ظل سادراً فى غيبه ، فكتب إليه يحذره وينذره بالعقاب والنكال ، وكان الذئب قد صمم على التمرد ونقض الطاعة ، فردّ على النمر بهذه الرسالة العنيفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم ، أما بعد فإن كتاب الملك - أمتع الله به - وصل إلى بما حذّر فيه وأنذر ، وقدّم وأخّر ، وفهمته ، وقد كان الملك - حفظه الله - أسند إلى أمر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدو به ، وانقطاع من سبيله ، واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه ، فرأبت^(١) صدع الآفة ، وجمعت شمل الطاعة ، وكشفت دجية^(٢) الفتنة وأسغت الريق بعد الشجا^(٣) ، وقمعت أولى العداوة والبغضاء ، وأقمت حقماً كان معلمه^(٤) متروكاً ، ودمغت ضلالة كان طريقها

(٣) الشجا : الفصة وما يعترض فى الخلق .

(٤) معلمه : مفرد معالته .

(١) رأيت : أصلحت .

(٢) الدجية : الظلمة .

مسلوكاً ، أتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآب ورضا الملك والزلفة عنده ، فعاد ما عملته هباء، ولم أجد منه شيئاً مشكوراً، وما يُقَعِّقُ لئلي بالشَّان^(١) وإني لألٔوى بعيد المُسْتَمِرِّ^(٢) فإن يستم الملك صنيحته ويترَّب^(٣) نعمته فأنا بين العَصَا ولحائنها^(٤) ، وإلا فسيجدني جِذَلِ حِكَاك^(٥) إذا نكأت^(٦) قُرْحَةَ أدميتها ، أحمر^(٧) ، ضراباً بالسيف ، والسلام .

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاص عليه فجمع وزراه ، وكانوا ثلاثة ، فاستشارهم في أمره ، فأشار الأول بالكتابة إليه في إيجاز لتبَيِّنْ دخيلة أمره وحقيقة موقفه إن سَلِمًا فِسْلِمٌ وإن حَرَبًا فَحَرْبٌ ، وأشار الثاني بالصفح عن زلته ، فإن الحرب سجال ، وهي حتى على الظافر خسارة في الأموال والرجال ، وأشار الثالث بمجاربته قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر ضعفاً ، فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه ، وأخذ النمر بقول الوزير الأول ، فكتب إلى الذئب رسالة ، نُسختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم ، أما بعد فأني رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا نظرت في كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت فإن كنت سَلِمًا فأقبيل^(١) وإلا فأذن^(٢) بحرب ، والسلام . »

ولجَّ الذئب في عصيانه ، ونشبت بينه وبين النمر معارك حامية الوطيس ، انتهت بمقتله والتقبض على الثعلب وزيره ومدبر أموره ، وكاد أن يُقْتَلْ لولا ما لاحظ النمر من ذكائه ودقة تفكيره، مما جعله يَعِدُّهُ أن يَبْقَى على حياته إن هو أحسن الإجابة على ما يُلْتَقَى عليه من أسئلة . وتتوالى الأسئلة في الإنسان والعقل وحظ العقلاء منه وتفاضلهم فيه وفي مكانة العقل من العلم وأثره في سلوك الإنسان وشيمه الخلقية وما يصيبه من خير أو شر . وتلقانا في هذه الإجابات طرافة تفكير سهَّلْ

(٤) لحاء العصا : قشرها . والكناية واضحة .
 (٥) الجذل : أصل الشجرة . حكاك من الحك وهو الدلك . وجذل حكاك : مثل يضرب لمن يستنق رأيه .
 (٦) نكأت القرحة : قشرها قبل أن تبرا .
 (٧) كفى بالحمة عن البأس الشديد .

(١) الشنان : جمع شن وهو الجلد اليابس .
 وقَعَّق : ضرب . وكنوا إذا ضربوا عليه نفرت الإبل ، ويضرب ذلك مثلا إن لا يرهبه بعيد ولا إنذار ولا تخويف .
 (٢) ألوي : عسر ، يلٔوى على خصمه . بعيد المستمر : قوي في الخصومة .
 (٣) يرب : ينهى ويزيد .

ودقته وتعمقه ، ومن خير ما يصور ذلك حديثه عن تفاضل العقول والعقلاء ونزولهم في درجات متفاوتة متفاوتاً بعيداً ، ومع ذلك يطاق عابثاً جميعاً اسم واحد ، يقول مورداً السؤال والإجابة ، ومنتهياً إلى أن العقل الكامل من صفات الله وحده .

«أخبرني عن العقل أهو شيء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه أم الناس في نسبه مستون أم متفاضلون ؟ قال : بل متفاضلون » قال : فكيف دعي ذو الحظ اليسير منه باسم ذي الحظ الكبير ، فقيل لهما عاقلان وهما في العقل متباينان ؟ فهل يقع اللقب الواحد على ذوى الدرجات الشتى ؟ قال : نعم ، وليس ذلك بخطأ من القائل ، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد ، واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن يُدعى كل ذي درجة من درجات الجنس الواحد بلقب غير لقب الآخر ، ولو كُلفت اللغة ذلك لطال الكلام . . . لتوزع المعنى المستوجب للاسم ولكنها شملتها كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد . قال : فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد؟ . قال : بالتمييز وكشف المعرفة ، ومثل ذلك في اللغة ما يُدعى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت ، إذ يقال : بُناة وبحارون وتجار وخباطون ، ولكل منهم على صاحبه فضل أو عليه له فضل . فالناس كلهم مستون فيما يلحقهم من النقص في العقل ، وهم فيما أتوا منه متفاضلون ، أحدهم فيه أكثر حظاً منه . قال : كيف مدت هذه الغاية ومنع ذوو العقل بلوغها؟ قال : لأن الغاية كمال ، والكمال صفة لا تصح إلا للخالق ، ولا يستوى الخالق والخلق في صفته ، تعالى الله عن ذلك . »

وواضح ما أودعه سهل هذه القصة الحيوانية من تصوير لحكم الملوك المتجبرين والولاة المتبردين وحيل الوزراء الدعاة ، مستخلصاً في ثنايا ذلك كثيراً من العظات ونائراً كثيراً من الحكم والأمثال . وهو يبتغي بذلك نفس الغاية التي ابتغها واضع كليله ودمته من نصح الملوك والحكام عن طريق ما يجري على ألسنة الحيوان من مقت الظلم والبغى وسوء السيرة ومحبة العدل والإنصاف . وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليله ودمته ، إذ يعرض للعلم والجهل والعقل وإرشاده الإنسان إلى الخير وصرفه عن طريق الشر . والقصة مشوقة لا بما فيها من حوار فحسب ، بل بطرافة الحوار

وما يجرى فيه من حيل وأفكار دقيقة نادرة . وفي أسماء كتب سهل التي ذكرناها آنفًا ما يدل على أنه أجرى بعض قصصه على ألسنة الإنسان مباشرة على نحو ما يدل على ذلك اسم كتابه « المخزومي والمهذلية » واسم كتابه الثاني : « الوامق والعدراء » .

واحتفظ الجاحظ في أول كتابه البخلاء برسالة طويلة له يحتاج فيها للبخل وينصره على الكرم ، ومرّ بنا ما يقال من أنه كتبها شعويةً على العرب ، إذ حاول فيها أن يهدم فضيلة الكرم العربية هدمًا . ويذكر الرواة أنه قدمها إلى الحسن ابن سهل يرجو مكافأته عليها ، فكتب له على ظهرها : « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك » . ونراه في فاتحتها يتوجّه بالحديث فيها إلى بني عمه ، وظن القدماء أنه يريد بني عمه الحقيقيين من آل راهبون ، وأغلب الظن أنه يقصد العرب . وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هدايتهم وأنه إن أخطأه سبيل إرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية ، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه ، مستعينًا بقدرته على الجدل وصنع الحجج المنطقية وبما حفظ من بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط في الإسراف ، أما البخل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة فضلًا عن الرسول الكريم الذي حَصَّ على البذل والإيثار والسخاء بكل ما في اليد ، كما حَصَّ القرآن الكريم لا على الصدقات فحسب ، بلى على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون ، وصورَ المثل الأعلى في ذلك فقال جَلَّ شأنه : (وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة ، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل ، فاختر من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ما قد يشهد له ، وهو إنما يشهد على زهادتهم في الدنيا وصغر متاعها في أعينهم حتى بَعُدَ إقبالها عليهم ، وفرَّق بين الزهد والبخل والحرص والشح ، ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة ، لنطلع من جهة على قدرته في الجدل والحجاج ، ومن جهة ثانية على قدرته البيانية ، يقول :

« وعبتموني حين ختمت على سدِّ^(١) عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة

ومن رُطْبِيَّة (١) غريبة على عبد نَهَم (٢) وصبي جَشِيع وأمة لَكَمَاء (٣) وزوجة خَرْقَاء (٤) . وليس من أصل الأدب ولا في ترتيب الحِكَم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السَّادة أن يستوى في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لا تستوى مواضعهم في المجالس ومواقع أسمائهم في العنوانات وما يُسْتَقْبَلُونَ به من التحيات . . . وعبتموني بِخَصْف (٥) النعال وبتصدير (٦) القميص ، وحين زعمت أن المحصوفة من النعل أبقى وأوطأ (٧) وأقوى وأنقى للكبر وأشبه بالنسك ، وأن الرقيق من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ . وأن التفرق مع التضييع . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بِخَصْف نعله ، وَيَرْقَعُ ثوبه ، ويقول : « لو أتيت بذراعٍ لأكلت ، ولو دُعيت إلى كُرَاع (٨) لأجبت » ولقد لَفَقْتُ (٩) سَعْدَى بنت عوف إزارَ طلحة (١٠) وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض ، وكان في ثوب عمر رِقَاع أَدَمٍ وقال : من لم يَسْتَحْيِ من الحلال خَفَّتْ مؤزنته وقلَّ كِبَرُه ، وقالت الحكماء : لا جديد لمن لم يلبس الخَلْق (١١) . . فترقيق الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكَسْبِين ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . . وعبتموني حين قلت : لا يَغْتَرَّنَ أَحَدُكُمْ بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عَظْمُه ووهن قوته وأن يرى أَكْرُومته (١٢) فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السَّرْف فيه ونسليط الشهوات عليه فلعله أن يكون معمرًا وهو لا يدري ، ومدوداً له في السن وهو لا يشعر ، وأعله أن يُرْزَق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مَحَبَّات الدهور ، مما لا يَسْخَطُرُ على الببال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعف ما كان عن

(١) الرطبة : النمر المرطب .

(٢) نهم : شره .

(٣) لكماء : لثيمة .

(٤) خرقاء : حمقاء .

(٥) خصف النعال : تزيينها وإصلاحها .

(٦) تصدير القميص : ترويق صدره .

(٧) أوطأ : ألين .

(٨) الكراع : مستدق الساق .

(٩) لفقت : ضمت جانباً منه إلى آخر

وخاطبتهما .

(١٠) هو طلحة بن عبيد الله كان غيثاً مزارياً

في الكرم فلقب بالفياض .

(١١) الخلق : الببال .

(١٢) الأكرومة : فعل الكرم .

الطلب ، وأقبح ما يكون به الكسب ، فعبتومنى بذلك وقد قال عمرو بن العاص :
 اعملْ لَدنياك عمل من يعيش أبداً ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً . . . وعبتومنى
 حين زعمت أنى أقدم المال على العلم ، لأن المال به يُقاد العلم ، وبه تقوم النفوس
 قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالترفضيل من الفرع ، وأنى
 قلت : إن كنا نستبين الأمور بالنفوس فإننا بالكفاية نستبين وبالخلة (١) نَعْمَتَى (٢) .
 وقلتم : كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الأدباء : العلماء أفضل
 أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر
 مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ولجهل الأغنياء بفضل
 العلم . فقلت : حالهما هي الفاصلة بينهما ، وكيف يستوى شىء تُرى حاجة
 الجميع إليه وشىء يَغْنَى بعضهم فيه عن بعض . . . وعبتومنى حين قلت إن
 فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار ، إن احتجج إليها
 استعملت ، وإن استغنى عنها كانت عُدَّة . . . وقال بعض الحكماء : عليك
 بطب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذلٌّ في قلب عدوك لكان
 الحظ فيه جسيماً والنتع فيه عظيماً . ولنا نَدَاع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب
 الحكماء لأصحاب الأدواء . . .

ويمثل هذه الحجج دافع سهل عن البخل ، وهي حجج يستمد فيها من المأثور
 عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وعن حكماء الأمم القديمة وخاصة
 حكماء أمته الفارسية ، مما يدل على اتساع ثقافته . وليس هذا ما يلفتنا وحده في
 تلك الحجج فإنه يلفتنا أيضاً قدرته المنطقية التي تتضح في إيراد الأقسام المتقابلة
 لإيراداً مستقصياً ، كما تتضح في استخدام الأقيسة وتصحيح الأدلة استخداماً
 دقيقاً ، وفي تضاعيف ذلك تتضح غزارة فكره وكأنه يستمد من معين لا ينضب ،
 كما يتضح إلحاحه على المعاني حتى وكأنه يريد أن يحصرها ويحيط بكل دقائقها ،
 وتأمل في رده على من يستحجثُ المهرمَ على إنفاق ماله على الناس وفي الملذات ،
 وفي الوجوه التي وضعها تحت عينه نحوفاً له ومعدراً من تضبيع ماله ، فستره يجمع
 هذه الوجوه في استقصاء وتفصيل دقيق ، فهو قد يعمر ، وقد يرزق الولد ، وقد

(٢) نعى : فضل .

(١) الخلة : الحاجة والفقر .

تنزل به بعض الكوارث ، وحيثذ إما أن يحاول استرداد ماله من بعض من أعطاه لهم . ويُردّ خائباً محسوراً . وإما أن يشكو إلى بعض الناس قائته ولكن لن يرحموه ، وفي الحالين يكون قد ضعف عن الكسب وطلب الرزق وبذلك ضيق سَهْلٌ الأَبوابَ على من يتسع في العطاء والإنفاق حين تتقدم به السن ، بل لقد أغلقها إغلاقاً إلا باباً واحداً فتحه على مصاريعه هو باب الشح . وتؤديه غزارة معانيه وأفكاره وحججه وأدلته إلى أن يثير موضوعاً طريفاً ، هو الموازنة بين العلم والمال وأيضا أفضل من صاحبه ، ويورد من الأدلة ما يجعل المال يَمَفْضَلُ العلم ، ويقتبس من الفقهاء حديثهم عن الأصول والفروع ، فيجعل المال الأصل والعلم الفرع ، ولا يستوى فرع وأصل . وسهلٌ في ذلك كله يرينا تطور العقل في العصر العباسي ومدى ما أصابه من رقي ومن نمو ومن ثراء ومن قدرة على الحجاج وبسط الأداة ، حتى ليتحول الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جدلا ، لا يزال يورد من الحجج والأدلة المنطقية ما يحاول به أن يفهم خصمه ويقهره . ويظهر أن هذه الطريقة استقرت في نفس سهل بتأثير المناظرين من المتكلمين في عصره وكثرة مناظراتهم في كل شيء ، في العقيدة وغير العقيدة ، وكان يرى الناس من حوله يُعْجَبُونَ بالظافر المنتصر على خصمه ، وخاصة حين يدافع عن رأي ضعيف ، فينصره نصراً مؤزرًا ، على نحو ما نصر البخل على الكرم ، ومن أجل ذلك نفتح الباب للظن بأنه ربّما لم ينصره شعوبية على العرب ، وإنما نصره إظهاراً لقوة جدله ومقدرته في صوغ الأدلة وتأليف الحجج والبراهين ، أو على الأقل كان بيان قدرته على الدفاع عن البخل الأثيم أقوى في نفسه من الطعن على فضيلة الكرم العربية . ومما يوضح هذا الجانب عنده أن نراه يفضل الزجاج على الذهب في رسالة طويلة وكان سبب كتابته لها أن رأى النظم ينم الزجاج ، كما رأى شداداً الحارثي يطنب في وصف الذهب ، فكتب هذه الرسالة معارضة لهما ونصرة للزجاج الضعيف ، وقد سقطت من يد الزمن إلا قطعة منها رواها صاحب سُرْح العيون ، وهي تمضي على هذا النمط :

« الزجاج مجلّو نورى ، والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن ، ولا يُفْقَدُ معه وجه التديم ، ولا يُشْقِلُ اليد ، ولا يرتفع في

السَّوْمُ^(١) واسم الذهب يُتَطَيَّرُ منه، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام، وهو فائق فانك^(٢) لمن صانه، وهو أيضاً من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحمران^(٣). والزجاج لا يحمل الوَضْرَ^(٤)، ولا يداخله الغَمَرُ^(٥) ومي غسل بالماء وحده عاد جديداً، وهو أشبه شيء بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب «

ولسهل بجانب رسائله الأدبية الطويلة رسائل إخوانية يتضح فيها جمال التعبير ودقة التفكير على نحو ما نرى في الرسالة التالية^(٦)، وقد كتب بها إلى صديق تماثل للشفاء من مرض:

« بلغني خبرُ الفِئْرَةِ^(٧) في إلامها وانحسارها، والشكَاة في حلولها وارتحالها، فكاد يشغل القلبُ بأوله. عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه، عن المسرة في انتهائه. وكان تعبري في الحالين بقدرهما ارتباعاً للأولى وارتباحتاً للأخرى. وواضح ما في هذه الرسالة الموجزة من الغوص على المعاني، فهو يتقابل بين خبر المرض وخبر الشفاء، وكيف شغلته حركة القلب مع الخبر الأول عن السكون وراحته مع الخبر الثاني، وكيف أذهلته الحيرة وكربها أولاً عن المسرة ومتعتها ثانياً. ويقول إن ما دخله من تغير في الحالين يقاس بارتباعه مع بدء العلة وارتباحتها مع انحسارها. وهو في جميع جوانب كتاباته شديد الغوص والتدقيق في معانيه، وجاء السجع على لسانه في أكثر هذه الرسالة، وهو إنما يجيء عنده أحياناً عفواً. وليس معنى ذلك أنه لم يكن يُعْنَى بتوفير الجمال لأساليبه فهو من هذه الناحية يتقدم ابن المقفع خطوات، إذ يعني ببسط عباراته، حتى يجرى فيها ضرباً من التقطيعات والتوقيعات الصوتية ومن أجل ذلك يكثر عنده الترادف، حتى يصل إلى ما يريد من ازدواج وإيقاعات متقابلة، ودائماً حين نقرؤه يلد عقولنا بغزارة معانيه ودقتها كما يلد أسماعنا يجرس كلامه وحسن أدائه وما يكفل له من تلوينات صوتية بديعة.

(١) السوم: المسامه في البيع.

(٥) الغمر: الدم.

(٢) فانك: غالب.

(٦) انظرها في شرح البيهقي ص ٢٤٥.

(٣) الأحمران: الذهب وطيب الزعفران.

(٧) الفئرة: الوعكة والصف.

(٤) الوضر: الوسخ.

أحمد^(١) بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الكوفي مولى بنى عجل ، وقد ألمنا بأبيه في الفصل الماضي وقلنا إنه كان يكتب في دواوين الكوفة لولادة بئى أمية ، ثم لما تحولت مقاليد الخلافة إلى العباسيين كتب لعبد الله بن علي ثم التحق بدواوين المنصور ، وظل يكتب في دواوين المهدي والهادي ، ولمع نجمه في عصر الرشيد والبرامكة ، فكان يخلف يحيى البرمكي على الدواوين في قصره وقصر الرشيد . ولا نعرف بالضبط متى ولد له ابنه أحمد ، ويغلب أن يكون ميلاده حول منتصف القرن الثاني للهجرة ، ويظهر أنه عني بتأديبه عناية واسعة ، كى يصلح للعمل في الدواوين على شاكلته ، فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعراً يحسن نظم الشعر وصوغه ، كما أخذه بثقافة إسلامية واسعة ، حتى يعرف الحدود وأحكام أهل الذمة وأصول الدين وفروعه ، وأخذه أيضاً بثقافة رياضية واسعة تعينه في الحراج وشئونه . ولا بد أن يكون قد أخذه بثقافات العجم مما يتصل بأداب السياسة وبكتب الفلسفة والحكمة ، ولا بد أن يكون أيضاً قد أخذه بأداب اللياقة حتى يُحسن مخاطبة الخلفاء والوزراء ، وحتى الخطّ نراه يوجهه إلى إتقانه مما جعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحسن خطه ، ويروى أن قائلاً قال له يوماً : ما أدري مم أعجب ، مما وليه الله من حسن خلتك أو مما وليته من تحسين أخلاقك .

وعلى هذا النحو أُعِدَّ أحمد بن يوسف ليكون مثالا للكاتب الخاذق النابه ، وأغلب الظن أن أباه ألقه بالدواوين معه ، وأنه كتب بين يديه في دواوين الرشيد ، وأعجبت الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون نجابته ، فالتقطه وحثه على التحول معه ومع المأمون إلى مرو حين اتخذها قاعدة لولايته على شرقي الدولة كى يكتب في

٥٦/٢٠ وزهر الآداب ١٣٠/٢ والفخري
ص ١٦٩ ومعجم الأدياء لياقوت ١٦١/٥
وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٠٩
وانظر الجهشيارى ص ٣٠٤ والعقد الفريد
. ١٤٥/٢

(١) انظر في ترجمة أحمد بن يوسف وأخباره
كتاب الأبرار للصول (قسم الشعراء) ص
١٤٣ ، ٢٠٦ وكتاب بغداد لطيفورفي مواضع
متفرقة (انظر الفهرس) وتاريخ بغداد للخطيب
البغدادى ٢١٦/٥ والأغانى (طبعة الساسي)

دواوينه ، وأذعن لرغبته ، وظل يعمل في الدواوين هناك ، حتى بعث طاهر بن الحسين في سنة ١٩٨ إلى المأمون برأس أخيه الأمين ؛ فلما رآها تأثر ، وقال للفضل ابن سهل : ينبغي أن تأمر الكتّاب بكتابة رسالة عن طاهر يخبرني فيها بهذا الخبر ، مع الاحتيال للاعتذار منه ، لتُقرأ على الناس ، فكتب الكتّاب عدة كتب لم يرضها الفضل واستطأها . ولم يلبث أحمد بن يوسف أن كتب رسالة محكمة موجزة في شهر من قرصاس كما يقول بعض الرواة ، فلما عرضها على الفضل رجّع نظره فيها مستحسناً متعجباً من بلاغته ودقة بيانه ، ثم قال له : ما أنصفناك وأمر بصلات وفرش وكسبي وآلات . وقال له : إذا كان الغند فاقمعد في الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب بذلك إلى الآفاق .

ويدور العام ، فيجعل المأمون الحسن بن سهل نائبه على بغداد ، فيصطحبه معه ، وكان أخاه الفضل آثره به ، ليعينه في عمله ، ويكتب له في دواوينه . ويتقدم المأمون إلى بغداد بعد خمس سنوات ، فيصبح كاتبه على ديوان الرسائل كما يصبح أثيراً عنده قريباً من نفسه . نظرفه ورقته . وكان فيه ميل شديد إلى الترف فعاش عيشة بحفها النعيم في الفرش وأواني الطعام وألوانه . وشارك في متاع عصره من الشراب والسماع للقيان ، ولكن دون إغراق ومع الاحتفاظ بمروءته وكرامته . ولما توفي أحمد بن أبي خالد وزير المأمون سنة ٢١١ شاور الحسن بن سهل فيمن يخلّفه على الوزارة فأشار عليه بإبن يوسف ، فاستوزره ورفع منزلته ، فكان يعرض القصص أو رقايع الشكوى عليه ، ويوقع عليها بما يلائمها من العبارات ، غير أنه لم يلبث أن وافته القدر سنة ٢١٢ للهجرة ، ويقال إنه أشرف ، وهو عبي وشك الاحتضار على بستان داره وكانت مظة على دجلة ، فظل يتأمله ويتأمل دجلة ، ثم تنفس . وقال :

ما أطيبَ العيشَ لولا موتُ صاحبه ففيه ما شئتَ من عيبٍ لعائدهِ

وسرعان ما التقمه الموت . ولأخيه القاسم الشاعر زناه له يتفجع فيه تنجماً ، وكانت له جارية يقال لها نسيم كانت تحظى بحبه ويشغف بها شغفاً شديداً ، فقالت ترثيه :

ولو أن مَيِّتًا هابه الموتُ قبله لما جاءه المِقْدَارُ وهو هَيَّوبٌ
ولو أن حَيًّا قبله جازه الرَّدَى إذنٌ لم يكن للأرض فيه نَصيب

وهو يُعَدُّ في الذروة من كُتَّاب الدواوين في العصر العباسي الأول، لبلاغته
ودقة تفكيره وحسن تأنيه في الرسائل الديوانية السياسية والرسائل الإخوانية الشخصية ،
وأول ما نقف عنده رسالته التي أشرنا إليها آنفًا ، والتي كتبها للناس على لسان
طاهر بن الحسين ، وهي تجرى على هذه الصورة^(١) :

« أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قَسِيمَ أمير المؤمنين في النَّسب واللُّحْمَةِ
(القرابة) فقد فرَّق حكم الكتاب والسُّنَّة بينه وبينه في الولاية والحُرْمَةِ ، لفارقتها
عصمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عزَّ وجلَّ فيما
اقتصَّ علينا من نَسَبِ نوح وابنه : (يا نوحُ إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير
صالح) ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله .
وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوعَ وردَّاه^(٢) رداءً نَكَثَهِ ، وأحْصَدَ^(٣)
لأمير المؤمنين أمره ، وأنجز له ما كان ينتظر من وعده ، فالأرض بأكتافها^(٤)
أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبعُ شَيْءَ لَمِشِيته . . . والحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين
بحقه ، والكائد له من خان عهده ونكث عقده ، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها ،
وجمع به الأمة بعد شتاتها ، وأحْيَا به أعلامَ الدين بعد دروسها^(٥) ، والسلام
على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . »

ودقة التعبير واضحة في الرسالة ، وكذلك المهارة في تصوير عصيان الأمين
والربط بينه وبين عصيان ابن نوح وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوة أبيه
وقربائه. وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة ، فقد خرج من أهله ، وهو إنما
تولى الخلافة ميراثًا منهم ، وقد نكث عهده في الوفاء لأخيه بولاية العهد من بعده ،
هذا العهد الذي كتبه بيده وعلَّقه أبوه هرون على الكعبة ، حتى لا يستطيع الخروج
منه ، وقد نال جزاء خيانتة ، وعادت الأمور إلى نصابها ، فاجتمعت كلمة الأمة

(١) زهرالآداب ١٣٠/٢ ومجمع الأدباء .
(٢) ١٦٧/٥ والمجيشارى ص ٣٠٤ .
(٣) أحصد : نوى وأحكم .
(٤) أكتافها : فواحها .
(٥) دروسها : أمحلها .

بعد فرقتها ورُدَّ صولجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته . وكان توفيق أحمد بن يوسف في هذه الرسالة دافعاً لأن يطلب منه المأمون والفضل بن سهل أن يكتب رسالة الخميس ، وهي الرسالة التي كان يوجهها خلفاء العصر العباسي الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان مادّةً جيوشهم وغيرهم يسطون فيها حقّهم في الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها لما امتاز به من مناقب حميدة وما ينبغى على أهل خراسان من الولاء له . وأحكّم ابن يوسف الرسالة إحكاماً دقيقاً ، وطال فيها نفسه حتى بلغت نحو خمس عشرة صحيفة ، وأُعجب بها معاصروه إعجاباً شديداً مما جعل ابن النديم يقول : « الكتب المجمع على جودتها : عهد أردشير ، كيلة ودمته ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » وقد استهلّها بتحميد طويل طريف على هذا النمط ^(١) :

« من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمّد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلّي على محمد عبده ورسوله ، أما بعد فالحمد لله القادر ، القاهر ، الباعث ، الوارث ، ذى العزّ والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر ^(٢) السموات والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمنّ والطّول ^(٣) على أهلها ، قبل استحقاقهم لثوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته . الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلاً هادياً لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الأبواب ^(٤) ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى أقيموا على موارد الاختبار ، وتعقّبوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، وامتقن صنعته ، وحاجة متزاييل ^(٥) خَلَقَهُ ومتواصله إلى القوم ^(٦) بما يَلْمُهُ ويُصْلِحُهُ ، على أن له بارئاً ^(٧) هو أنشأه ، وابتدأه ، ويسر بعضه لبعض ، فكان أقرب وجودهم ما يباشرون من أنفسهم فى تصرف أحوالهم ، وفنون انتقاهم ، وما يظّهرون ^(٨) عليه من العجز عن التأتى ^(٩) لما تكاملت

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٧٧ .

(٢) فاطر : خالق .

(٣) الطول : الإنبام .

(٤) الأبواب : العقول .

(٥) متزاييل : متفرق .

(٦) القوم : القيام .

(٧) بارئاً : خالقاً .

(٨) يظهرون : يطلعون .

(٩) التأتى : الترفق .

به قواهم ، وتمت به أدواتهم ، مع أثر تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخليفة المحكمة ، والصورة المعجبة ، ليس لهم في شيء منها تطفُّفٌ يَحْتَمُّونَه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذكره : (يا أيها الإنسان ما غرَّكَ بربِّكَ الكريم الذي خلقك فسواك فعد لك في أي صورة ما شاء ركبك) . ثم ما يتفكِّرون فيه من خلق السموات ، وما يجري فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات ، على مسير من تصاريف الأزمنة التي بها صلاحُ الحُرثِ والنَّسْلِ وإحياء الأرض ولِقاحُ النبات والأشجار ، وتعاور^(١) الليل والنهار ، ومرُّ الأيام والشهور والسنين التي تُحصَى بها الأوقات . ثم ما يوجد من دلائل التركيب في طبقات السقف^(٢) المرفوع ، والمهاد^(٣) الموضوع ، باتساق أجزائه والتشامها ، وخرق الأنهار وإرساء الجبال . ومن البيان الشاهد على ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق حدوثه بعد أن لم يكن ، مترقياً في النماء ، وثباته إلى أجله في البقاء ، ثم محاره^(٤) منقضيّاً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَسِّحٌ عدد ، ولا منقطع أمد ، ما ازداد بنشوءه ولا تحيِّفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان . ثم ما يوجد عليه منفعته من ثبات بعضه لبعض وقوام كل شيء منه بما يُسَّرُّ له في بدء استمداده ، إلى منتهى نفاذه ، كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال عز وجل : (كلُّ مَنْ عَلَيهَا فإني وبيتي وجنهُ ربك ذو الجلال والإكرام) . وكل ما تقدّم من الإخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بسّى ، وأطباق الأرض التي دحا^(٥) ، وأثار صنّعه فيما برأ ، وذراً^(٦) ، ثابت في فطر العقول حتى يستعجر أولي الزيف ما يدخلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد ، والأنداد ، جعل عما يشركون . ولولا توحيده بالتدبير ، عن كل مُعين وظهير ، لكان الشركاء جدّراء أن تختلف بهم إراداتهم في الخلق ، ولأمكن التخلف فيه من إثبات وإزالة فيخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص فيما ذراه وبرّاه ، جعل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك ، وتعالى

(١) تعاور : تداول .

(٢) السقف المرفوع : السماء .

(٣) المهاد الموضوع : الأرض .

(٤) محاره : رجومه .

(٥) دحا : بسط .

(٦) برأ وذراً : خلق .

علوًّا كبيراً ، كما قال سبحانه : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون) .

وواضح أن أحمد بن يوسف تحوّل بهذا التحميد إلى ما يشبه مقالة من مقالات المتكلمين ، فهو يورد فيه الحجج على وجود الله الذى أنشأ العالم وخلق الإنسان فى صورة مقدرة محكمة ، وقد أعطاه من العقل ما يجعله إذا فكر فى خلق السموات والأرض يؤمن بأن للعالم إلهاً ، لما يجرى فى أفلاكه من نظام دقيق لا بد له من منظم ، أحكم تصاريّف الأوقات التى يتم بها صلاح كل حى فى الأرض من إنسان وحيوان ونبات كما أحكم صنعة الكون فى عالم السماء وعلم الأرض بما مهد فيه من سهول وخطّ من أنهار وأرسى من جبال . ويتعمق فى الدلالة على وجود الخالق البارئ وإنشائه للخلق أنهم يحدثون بعد أن كانوا معدومين وأنهم لا يزالون يترقون فى النموحتى تمتد لهم يد القضاء ، فلا بد من محدث لهم ، وفرق واضح بينه وبين الحادث . فالحدث له أول وله آخر ، أو كما يقول : « مفتتح عدد ، ومنقطع أمد » أما المحدث فلا أول له فى الزمن ولا آخر . وهو مصدر الوجود وقوامه ، وهو مدبّره ومصرّفه . ويقول إن كل ما ذكره من دلالات على وجود الله ثابت فى فطرّ العقول السليمة ، وثابت معه أنه واحد أحد لا شريك له ، إلا عند من زاغت عقولهم ممن يجعلون له الأضداد والأنداد كجوس الفرس الذين آمنوا بأن للعالم إلهين : إلهاً للخير وإلهاً للشر ، وكفيرهم من جعلوا له نديّين أو أكثر ، ولو صح ذلك لتفاوتت إرادة الآلهة فى الخلق واختلفوا فيه بين الإثبات والإزالة ، وبذلك يخلو الخلق من أحد وجهيه ، ويتم العجز والنقص على الله فيما برأه عليه من الحدوث ثم العدم أو من الإثبات ثم الإزالة . وعلى هذا النحو يتطور التحميد عند أحمد بن يوسف فى رسالة الحميس إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً فى الدلالة على وجود الله ووحدايته وحدوث الخلق وفناء العالم . وفلاحظ أيضاً فى هذا التحميد أن أحمد بن يوسف يحاول أن ينمق فيه ما وسعه التضميق وجبرّه ذلك إلى الاتساع باستخدام السجع فيه ، وهو لا يطرد فى كل صياغات التحميد ولا فى بقية الرسالة ، ولكنه يكثر ، ونحس كأن ابن يوسف يقصد إليه قصداً ، وخاصة حين نراه يسجع بين كلمة وكلمة . ويمضى فيحدث عن نعمة الله على خلقه

بإرسال أنبيائه وتعاقبهم بالنور الساطع والبرهان القاطع مبشرين ومنذرين حتى ختمهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصور جهاده في سبيل دعوته ورسالته حتى أعزَّ الله كلمته واستقام دينه ودخل الناس فيه أفواجاً . ويتحدث عن حق العباسيين في الخلافة ، إذ ورثوها بحكم قرابتهم للرسول صلوات الله عليه ، وكانوا أحق بميراثها من جميع آله ، وبذلك يخوض في تأييد الدعوة العباسية . وينتقل من ذلك إلى تأييد الدعوة للمأمون بادئاً بتقرير موقفه من الأئمة واسترسلاً فيما ينبغي على شيعة الخراسانيين من مواصلتهم نصرته . ويفيض في وعظهم وما ينبغي عليهم من مجاهدة أعدائهم وأهوائهم ومن الشكر للمأمون الذي يحوطهم برعايته لما فيه خيرهم ورشدهم والذي ينتوى جزاءهم بالحسنى وحملهم على الطريقة المثلى .

وطلب إليه الحسن بن سهل حين ولاه المأمون وزارته بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢ للهجرة أن يكتب رسالة يشكر المأمون فيها على صنَّعه جبَّراً لمصابه ، فكتب رسالة ضافية^(١) ، استهلها بتحميد الله وذكر آلائه واصطفائه محمداً لرسالته بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وتقفيته على آثار الأئمة الراشدين بالمأمون أمير المؤمنين . وأخذ يطنب في الثناء على عدله وما منح الرعية من عطفه ، وأشاد باختياره علياً الرضا لولاية عهده ومؤازرة الفضل بن سهل له في رعاية رعيته والقيام بدعوته وقمع أعدائه ، حتى حُمَّ أجله شهيداً فقيداً من إمامه ومن الخاصة والعامه . ويتجه إلى شيعة وشيعة الحسن بن سهل بتصوير حرمة الفضل عند المأمون بعد موته وإكثاره من الترحم عليه . ويشكره بلسان الحسن بن سهل على ما منحه من الوزارة وسنى الرتبة . ويعود إلى بيان ما خصَّ به الفضل في حياته من المنزلة الرفيعة ومن رياضة الحرب ورياسة التدبير وتقليده سيفه وخاتمه وما خصَّه في وفاته من إكرام ومن حزن ممض وعبرات سائلة ومن حفظ لأصحابه وإقرار خاصته وقوادته وعماله وكتابه على مراتبهم وما أول الحسن أخاه من وزارته وعطفه . ويفيض في التنويه بالمأمون وقضائه على خصومه شرقاً وغرباً ورحمته بفقراء المسلمين وضعفائهم وما اقترن له من الملك والدين والقدرة والنفو ، ويشكره عن الإسلام ونصرته له وعن المساجد وتأسيسها على التقوى وتلاوة القرآن وعن الرسول صلى الله

(١) انظرها في جمهرة رسائل العرب ٤١١/٣ .

عليه وسلم وحفظه لعِترته وآله وعن القواد والأجناد وما رفع من منازلهم ووقر من رواتبهم ، وعن الأخلاق وما وطد من شيمها الرفيعة وعن المسلمين وما رعى من شؤونهم وهزم من أعدائهم ، ويختم الرسالة بالدعاء له دعاء كثيراً : أن يُرَأبَ الصدع وترق الفتوق به وينكُل في أعدائه

ولأحمد بن يوسف رسالة في تهنئة عبد الله بن طاهر بقصائه على ثورة عبيدالله ابن السَّرِيِّ بمصر وأخرى في تعنيت بعض العمال على ظلم أنزله ببعض الناس ، ولكنها لا تبلغان من التتميق ما بلغته الرسائل السابقة . ومن طريف رسائله الديوانية ما كتب به عن المأمون إلى عمال النواحي في الاستكثار من القناديل بالمساجد في شهر رمضان ، وقد جاء فيها^(١)

« فإن في ذلك عمارة للمساجد، وإضاءة للمنهجدين^(٢) ، وأنساً للسَّابِلة^(٣) ، ونفياً لمكامن الرِّيب ، وتزويهاً لبيوت الله عزَّ وجلَّ عن وحشة الظلمِ » .

وكان يكتب أحياناً إلى المأمون في بعض الشئون . فيتلطف غاية التلطف ، وبما يُروى له من ذلك أن طُلَّاب الصَّلَات كَثُرُوا بِبَابِ المأمون ، وتأخرت صلواتهم ، فلما طال ذلك عليهم كتب إليه^(٤)

« إن داعي نَدَاكَ ، ومنادي جَدِّ وَاك^(٥) ، حمعا ببابك الوفود ، يرجون نائلك^(٦) المعبود ، فمنهم من يَمْتُ بِحِرْمَةِ ، ومنهم من يُدْنِي بِسَالِفِ خِدْمَةِ ، وقد أجمعت بهم المَقَام ، وطالت عليهم الأَيَام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعَشِم بِسَيِّئِهِ^(٧) ، ويحقق حسن ظنهم بيطوِّله^(٨) ، فعل إن شاء الله »

فوقع المأمون في كتابه : الخير متبع ، وأبواب الملوك مغان^(٩) لطالبي الحاجات ومواطن لهم . وأمره أن يكتب أسماء مَنْ نالِ بَابَ ومراتبهم ليُصير لكل شخص منهم قدر استحقاقه .

- | | |
|----------------------------|--|
| ١٦٩/٥ | (١) الصناعاتين العسكري من ٢٣ ورصد الآداب ١٣٢/٢ . |
| (٥) الجعوى العظيمة والنوال | (٢) المهجدين : من التهجده وهو الصلاة في حروف الليل . |
| (٦) النائل النزال والعطاء | (٣) السابِلة : السائر في السبل ولا مأوى لهم . |
| (٧) السيب العطاء | (٤) زهر الآداب ١٣١/٢ ومعجم الأدياء |
| (٨) الطول الإنعام | |
| (٩) معان منازل ومواطن | |

وكان كثيراً ما يُهْدَى إلى المأمون هدايا في أيام النيرور^(١) ، ويرْفَقها برسالة رقيقة ، تحمل سطرًا أو سطرين من النثر وبعض أبيات من الشعر ، فن ذلك أن أهداه مرة - فيما يقول الرواة - سَفَط ذهب فيه قطعة عودٍ هندي في طوله وعرضه ، وكتب معه^(٢) .

« هذا يوم جرت فيه العادة . بإتحاف الناس السادة . وقد قلت على المرء حتى وهو لاشك فاعله وإن عَظُم المولى وجَلَّتْ فَوَاضِلُهُ^(٣) ألم ترنا نُهْدَى إلى الله ماله وإن كان عنه ذاغِنِي فهو قابله ولو كان يُهْدَى للحليل بقدره لتَصَّر عنه البَحر يوماً وساحله ولكننا نُهْدَى إلى من نُجِلُّه وإن لم يكن في وُسْعنا ما يشاكله »
وروت كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لأحمد بن يوسف ، وهو فيها يروى ويتأنق في اختيار لفظه ، مع حسن البيان ورصانة القول . من ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يهنئه بمواود له^(٤) .

« بارك الله في مواودك اندي أتاك وهنأك نعمته بعطيته . وملاك^(٥) كرامته بماندته وأدام سرورك بزيادته ، وجعله باراً تقياً . ميموناً مباركاً ركبياً . ممدوداً له في اللقاء ماعاً غاية الأمل مشدوداً به عَضُدك . مكشراً به ولديك ، مُدَاماً به سرورك . مدهباً به الآفات عليك . مشموعاً بأكثر العدد . من طيب الولد »
وهو دائماً في التهنته بالمواويد يتحدث عن أنها نعمه من الله وهمة ، ويدعو للآب أن نفر عينه بانه ، وأن يبارك الله له فيه ، ويجعله باراً نابويه . نقياً زكياً ميموناً سعيداً . وأن يشد به أزراله الد ويكثر من أحفاده . أولاد هذا الولد الصالح . وله من بهنته لأحد إخوانه بإبلاله من مرصه^(٦) .

« قد أذهب الله وصت العلة ونصّبها^(٧) ، ووفر أحرها وثوابها ،

(١) النيرور من أعواد الفرس وهو أول يوم عندهم في السنة
(٢) صبح لأعي ٢/٤٢٠
(٣) افوضل . النعم
(٤) حمرة رسائل العرب ٣/٤٣٨
(٥) ملاك : منمك .
(٦) العقد الفريد ٤/٢٣٩
(٧) النصب . التعب الشديد ، والرصب الوصح

وجعل فيها لإرغام العدو بُعْبَابَهَا^(١) ، أضعاف ما كان عنده من السرور بِقَبْحِ
أولها .

وتأنقه في العبارة واضح لا بما يُجْرَى فيها من سجع فحسب ، بل بما يوفر
أيضاً في أوائلها من ترادف النصب مع الوصب والثواب مع الأجر ، ليستم
الجمال الصوتي . ومن رسائله في الشكر^(٢) :

« من اتسع في الأفضال^(٣) ، اتسعت به الأقوال من شاكر مُثْنٍ ، ومادحٍ
مُطَرِّ ، ولينا نصفك بما يعينُ لنا ، ويمدِلُ على ألسُننا ، مما يتقرَّب به
ذو الرغبة ، ويضُرِّع به ذو الرهبة ، لاستنزال مرغوب ، أو استنجاز مطلوب ،
ولكننا نطق عن سيرتك بإفصاح ، ونُبين عنها بإيضاح ، فَتَكُفُّ شَغَبَ
الكائد ، وتُطيل نفس الحاسد » .

وسجعه المطرد في هذه الرسالة ليس معناه أنه كان يسجع دائماً ، فهو يسجع
حيناً ، وحيناً لا يسجع ، ولكنه يُعْنِي كما قلنا بالترادف بين الألفاظ والعبارات ،
على نحو ما نرى في هذه الرسالة إذ تلا كلمة « شاكر مثن » بكلمة « مادح مطر »
وهي بنفس معناها ، ليحكم لتعبيره التلاؤم الصوتي والتعادل الموسيقي ، وهو ما كان
يسميه القدماء بالازدواج ، ودائماً تتردد أساليبه بينه وبين السجع على شاكلة قوله
في المديح^(٤) :

« لقد أحلك الله من الشرف أعلى ذرّوته ، وبلّغك من الفضل أبعد غاية ،
فالآمال إليك مصروفة ، والأعناق إليك معطوفة . عندك تنتهي الهمم السامية ،
وعليك تقف الظنون الحسنة ؛ وبك تُشْنَى^(٥) الخناصر ، وتستفتح أغلاق
المطالب ، ولا يستريث^(٦) الشُّجْحَ مَنْ رجاك ، ولا تعرفه النوائب في ذرّاك^(٧) .
وعلى نحو ما كان يتفنن في المدح والثناء كان يتفنن في الذم والهجاء ، وكان
أحياناً يسخِرُ فيه ونحز الإبر وأحياناً يطعن طعنات مدمية ، من ذلك ما كتب به
إلى آل سعيد بن سلم^(٨) :

-
- (١) عقباها : عاقبها .
(٢) الأوراق للصلوة (قسم الشعراء)
ص ٢٢٢ .
(٣) الاتصال : النعم والأيادي .
(٤) الصلوة ص ٢٢٢ .
(٥) تشني الخناصر : كناية عن أن الآمال
تعقد به .
(٦) يستريث : يستبطل .
(٧) الذرا : الكنف والظل .
(٨) زهر الآداب ١٣٢/٢ .

« لولا أن الله عزَّ وجلَّ ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكُتِبَتْهُ بِالْقُرْآنِ لَبِعثَ لَكُمْ نَبِيًّا نِقْمَةً ، وَأَنْزَلَ فِيكُمْ قُرْآنَ غَدْرٍ ، وَمَا عَسَيْتُمْ أَنْ أَقُولَ فِي قَوْمٍ : مَحْسَنُهُمْ مَسَاوِي السَّفَلَةِ ، وَمَسَاوِيهِمْ فَضَائِحُ الْأُمَمِ ، وَالسُّتَيْهِمْ مَعْقُولَةٌ بِالْعِيِّ ، وَأَيْدِيهِمْ مَعْقُودَةٌ بِالْبُخْلِ ، وَأَعْرَاضُهُمْ أَغْرَاضٌ لِلذَّمِّ ، وَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

لا يكثرون وإن طالَّتْ حَيَاتُهُمْ ولا تَبِيدُ مَخَازِيَهُمْ وَإِنْ بَادَوْا
وله معاتبات واعتذارات كثيرة ، وكان يعرف في الأولى كيف يتحدث عن رعاية حق الصديق ، كما كان يعرف في الثانية كيف يتسع بالحجة والفكرة اللبقة ، حتى يستل من صاحبه عفوه ورضاه ، من ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه (١) :

« أَيْتِكَ وَافِدًا بَدَنُونِي عَلَى عَفْوِكَ ، وَائْتَمَّ لِعَقُوبِي بِبِرِّكَ ، لَا مُسْتَظْهِرًا عَلَيْكَ بِشَفِيعٍ قَدْ مَتَّهُ ، خَلَا تَطَوُّكَ (٢) بِالْعَفْوِ عَنِ الْإِخْوَانِ ، وَتَفَضَّلَكَ عَلَيْهِمُ بِالْإِحْسَانِ ، فَإِنْ تَعَاقَبَ فَقَدْ حَكَمْتَ بِالْمَعْدَلَةِ (٣) بِعَقُوبَتِكَ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنْ تَجَافَى عَنِ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي لَمْ يُصِرَّ لَكَ عَلَى قَطِيعَةٍ ، وَكُلُّ ذَنْبٍ كَانَ أَصْلَهُ الْاسْتِبْطَاءُ لِلدَّالَّةِ الْحَرَمَةِ ، وَالْاسْتِعْطَافُ بِمَاتَّةٍ (٤) الْخِدْمَةِ ، فَهُوَ مِمَّا يُعَدُّ فِي الْحَسَنَاتِ ، لَا السَّيِّئَاتِ . »

وتدور في كتب الأدب له توقعات طريفة كان يوقع بها على رقايع الشكوى . وكتب بعض العمال ورسائل الاستراحة وبسُدِّ المعروف ، فن ذلك ما حكى الرواة من أن رجلا غصب آخر ضيعة في أثناء غيابه واستغلها سنوات معدودة ، فلما قدم طالبه بضيعته ، فاشتكاها قائلاً : الضيعة لي وفي يدي ، واطَّاع ابن يوسف على الشكوى ، فوقع عليها بقوله (٥) :

« الْحَقُّ لَا تَخْلُقُ جِدَّتَهُ ، وَإِنْ تَطَاوَلَتْ بِالْبَاطِلِ مُدَّتَهُ ، فَإِنْ أَنْطَقْتَ حُبَّتَكَ بِإِفْصَاحٍ ، وَأَزَلْتَ مَشْكَلَهَا بِإِضْاحٍ - غير . « لي وفي يدي » فكثيراً ما أراها ذريعة الغاصب ، وحجة المغالب - وُفِّرَ حَقُّكَ عَلَيْكَ ، وَسِيَقَ بِلَا كَدٍّ إِلَيْكَ ، وَإِنْ رَكَنْتَ مِنَ الْبَيَانِ إِلَيْهَا ، وَوَقَفْتَ عَنِ الْإِحْتِجَاجِ عَلَيْهَا كَانَتْ حُجْمَتَهُ بِالْبَيْئَةِ

(١) جمهرة رسائل العرب ٤٥٢/٣ .

(٢) تطولك : تفضلك .

(٣) بالمعدلة : بالعدل .

(٤) مائة : صلة .

(٥) جمهرة رسائل العرب ٤٥٨/٤ .

أعلى ، وكان مما يدعيه أولى ، إن شاء الله »

ولعل في كل ما قدمنا ما بصور بلاغة أحمد بن يوسف وكيف أنها كانت نعتمد على غزارة في الفكر وبراعة في الأداء وهي براعة يتقدم بها مَنْ سبقوه من كتّاب الدواوين في القرن الثاني الهجري تقدماً واسعاً وخاصة في الرسائل السياسية ، إذ تأتي في ألفاظها وعباراتها تأثقاً جعله يتخللها بالسجع ، فإن لم يواته تحلّلها بالازدواج والترادف الصوفي . وبذلك أسبغ عليها ضروراً من الجمال الموسيقي لم نكس مألوفة قله إلا في بعض الرسائل الإخوانية وبعض التوقيعات ، على نحو ما مرّ بنا في الفصل السابق عند ابن سيّابة وجعفر بن يحيى البرمكي . ولا ننسى سهل بن هرون ، فقد كان يُعنى مثله بالازدواج والترادف والموسيقى غير أن ابن يوسف هو الذي أعدّ هذا الأسلوب وما طوى فيه من سجع ليشيع في الكتابات الديوانية

٤

عمرو^{١١} بن مسعدة

كان جده الأعلى صول أحد ملوك حرجان ، وكان من الترك الذين اعتنقوا المحوسية وتشبهوا بالفرس . وقد اعتنق الإسلام في زمن بي أمية ، ودخل ابنه سعيد في الدعوة للعاسية . فلما نجحت صارت له منزلة في الدولة إذ كان من دُعائها الناهيين . ولم يلبث خالد البرمكي أن استخلص ابنه مسعدة للكتابة بين يديه في وزارته لتسفاح والمنصور ، وظل يعمل في دواوين الأخير حتى قلده وريته أبو أيوب المورباني رئاسة ديوان الرسائل . ويولّد له ابنه عمرو . فبُعِنى بتأديبه حتى بصلح للكتابة في دواوين الدولة ويظهر أنه مضى يتثقف ثقافة عربية وإسلامية واسعة . حتى غداً نَسِيناً فصيحاً ، بل لقد عدا شاعراً ينظم الشعر ، كما عدا بحس شئون الفقه مما يتصل بالحراج ، ووقف على العلوم الرياضية ، وما يتصل بها من الحساب مما كان يتثقفه الكتاب ، كما وقف على آداب الفرس وكتاباتهم في السياسة والأخلاق وتديير الحكم ، وربما وقف أيضاً على شيء من

خلكان ٤٩٢/١ وتاريخ بغداد للخطيب
المعداني ١٢/٣٠٣ ورمز الآداب ٢٤٩/٣

(١) انظر في ترجمة عمرو بن مسعدة معجم
الأدباء ١٦/١٢٧ ووفيات الأعيان لابن

الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية . وكل تلك كانت أدوات ترشح الشخص لكي يعمل في الدواوين لعصره ، ويتقن العمل فيها ، ويظفر بما يريد من الإعجاب والترقى في المراتب السنية .

وما نصل إلى زمن الرشيد والبرامكة حتى نجد جعفر بن يحيى البرمكي يستخلص عمراً لنفسه ، ويتخذها كاتباً للتوقيع بين يديه ، إذ حدثت عن نفسه قائلاً « كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانته ورقة يستزيدونه في روايتهم ، فرمى بها إليّ ، وقال : أجيب عنها ، فكتبت . قليل دائم خير من كثير منقطع . فضرب بيده على ظهرى وقال : أى ورير في جلدك ! » . وأفاده عمله مع جعفر في التوقيعات إفادة واسعة ، إذ كان جعفر يُعَسِّي - كما قدمنا - بتنميق عباراته والاقتصاد فيها أشد ما يكون الاقتصاد ، فطُبع بطوابعه البلاغية على نحو ما سنرى عما قليل .

ونراه بعد ذلك متصلاً بالفضل بن سهل القائم على تدبير شؤون المأمون حين كان يحكم من مرو الولايات الشرقية ، وقد اتخذها كما مرّ بنا في غير هذا الموضع وزيراً له وأسلم إليه مقاليد الحكم ، فما زال بالأمين حتى قضى عليه كما قدمنا ، وباع الناس المأمون بالخلافة ، وظلاًّ جميعاً بمرو حتى سنة ٢٠٢ للهجرة ، فبارحها قاصدين إلى بغداد ، وقُتِلَ الفضل في الطريق ، كما أسلفنا وإنما ذكرنا ذلك لما نظنّه من أن عمرو بن مسعدة إذا كان عمل في دواوين الفصل فلا بد أن يكون عمل بها في مرو ، مثله مثل أحمد بن يوسف . وكان الفضل أعجب به ، فأذناه منه واصطحبه معه هناك . وعاد إلى بغداد . فعمل في دواوين أخيه الحسن وزير المأمون أو بعبارة أدق عمل في دواوين الخلافة ، ووقع من نفس المأمون توقيعاً حسناً فمهد إليه أحياناً تفتيش الولايات . وما زال يعجب به وببلاغته . حتى إذا رَفَعَ أحمد بن يوسف إلى مرتبة الوزارة أقامه على ديوان الرسائل . وكان بأنس له ويستطيب حديثه ، فلما أخذ في سز الروم كان يستصحبه في عرواته ولعظم منزلته عنده ظن بعض الشعراء أنه استورد ، وذكر ذلك في بعض مديحه له . إذ يقول

لقد أسعد الله الوزير ابن مسعدة وبث له في الناس شُكراً ومحمد

وكان جواداً ممدحاً ، كما كان فاضلاً نبيلاً حميد العشرة محبباً إلى معاصريه ، وما توافى سنة ٢١٧ للهجرة حتى يُلَبَّسَى نداء ربه بأذنة في غزوة مع المأمون . ويرُوى أنه لما مات رُفعت إلى المأمون رقعة فيها أنه خَلَّف ثمانين ألف ألف درهم ، فوَقَّع في ظهرها :

« هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله اولده فيما خَلَّف وأحسن لهم النظر فيما ترك » .

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه ببلاغته ، وهى تُعَدُّ امتداداً لبلاغة جعفر بن يحيى البرمكى ، تتصف بصفتين أساسيتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق والوضوح البالغ ، وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة ، أما الإيجاز فقد بلغ منه أنه كان يُضْرَبُ به المثل فيه ، كما كان يُضْرَبُ بجعفر بن يحيى من قبله ، وكان يقول للكتَّاب : إذا استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . وكأنما استقر ذلك في نفس عمرو فإذا هو يُجِيلُ كتبه في مختلف الأغراض إلى ما يشبه التوقيعات اختصاراً واقتصاداً في القول . وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به ، وكثيراً ما كان يوصى به الكتَّاب من حوله ، ومرَّ بنا في الفصل الماضى وَصَفُ ثُمَامَةَ بن أشرس المعتزلى لبلاغته ومدى ما كان يُجْمَرى فيها من بيان ووضوح وإيجاز شديد ، ويرُوى أن الفضل ابن سهل وصف بلاغة ابن مسعدة فقال : « هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه فإذا رامها تعذرت عليه ^(١) . وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى : ما حَدُّ البلاغة ؟ فقال : التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رامها استصعبت عليه .

وليس هذا كل ما أخذه عمرو عن جعفر ، فقد كان جعفر يتأقن في اختيار لفظه ، حتى لينمته أحياناً بالسجع الرشىق ، فحاكاه عمرو في تسمية وتأنقه وإشاعة السجع أحياناً في كلامه ، وخاصة إذا كان موجزاً وطال نظره فيه ، إذ كان لا يزال يبحث عن اللفظة الملائمة التى تروق في السمع ، كما يبحث عن المعنى الدقيق ، فالكتابة عنده وخاصة إذا اتجه بها إلى الحسن بن سهل أو إلى المأمون أو كلَّفاه بالكتابة عنهما لم تعد شيئاً يجرى عفواً الخاطر ، بل أصبحت بحثاً بأدق

ما تدل عليه كلمة بحث ، بحثاً في استقطار المعاني ، بحيث لا يفوت المعنى على إيجازه الدلالة الواضحة البينة عن طائفة واسعة من الأفكار ، وبحيث لا يفوت الألفاظ حمل المعنى وأدائه أداء يحلب الأبواب . ولعل من الخير أن نسوق طائفة من رسائله نستشف منها خصائصه البلاغية ، فمن ذلك ما كتب به إلى الحسن ابن سهل يستم صنائعه عنده^(١) :

« أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقّي ، وإذا أسس بنّي ، ليستم تشييد أسسه ، ويجتنى ثمار غرسه ، وبنائك عندي قد شارف الدروس^(٢) ، وغرسك مشف^(٣) على اليبوس ، فتدرك بناء ما أسست ، وسقّي ما غرست ، إن شاء الله .
وواضح تأنقه في الكتاب وتنميته ، حتى ليبنيه على السجع ، وواضح أيضاً تدقيقه في اختيار الألفاظ ، وأنه لا يعمد إلى الإطناب ، إنما يعمد إلى الاقتصاد ، مؤدياً بصورتين كل ما في نفسه ، فصنائع الحسن عنده تشبه بناء ، وضع أساسه ، ولا بد من متابعة الإنفاق عليه حتى يرتفع في الجو وتقوم أركانه ، أو هي تشبه غرساً ، لا بد له من تعهد بالماء والتربية حتى يشتد ويؤتي ثماره . ويقول إن الأساس قد أشرف على الاحياء والغرس قد أشرف على الذبول فلا تضن بالثفقه والتعهد عليهما حتى لا يضيع ما أنفقت وتعهدت أولاً . أرايت كيف أننا حين نعمد إلى فهم كلام ابن مسعدة نضطر إلى شيء من البسط والإطناب ، وكأننا بإزاء صياغة تشبه صياغة الشعر الغنائى المركزة التي يشق عليها ما تحمل من معانٍ كثيرة في عبارات مسرقة في الإيجاز . ومع ذلك فالألفاظ واضحة غاية الوضوح ، ولكنها مع وضوحها تحمل معاني غزيرة ، مع قلة عدد الحروف والكلمات ومع سهولة الألفاظ وخفتها في النطق .
وقال أحمد^(٤) بن يوسف : « دخلت على المأمون وفي يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعد فيه بصره ويصوبه ، فالتفت إليّ وقد لحظني في أثناء قراءته للكتاب ، وقال : يا أحمد أراك متفكراً فيما تراه مني ! قلت : نعم ، وقسى الله أمير المؤمنين من المكارة وأعاده من المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنني أقرأ كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة ،

(٤) انظر وفيات الأعيان ١/٩٤٤ : وقارن

بزهرة الآداب ٣/٢٤٩ والعقد الفريد ٢/٢٧٢ .

(١) معجم الأدباء ١٦/١٣٠ .

(٢) الدروس : الإجماع .

(٣) مشف : مشرف .

فإني سمعته يقول : البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا ، وروى به إلى وقرأته ، فإذا فيه : « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قوادهم وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جنود تأخرت أرواقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم ، والثالث^(١) معه أمورهم » .

فلما قرأته قال : إن استحساني إياه بعثني أن أمرت للجنود قبلكه بعطائهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلال عمله في صناعته . وفي رواية أخرى أنه قال لابن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار .

ولا ريب في أن عمراً تعب طويلاً في كتابة هذا الكتاب الموجز ، حتى يقع على العبارات القليلة التي تؤدي إلى المأمون امتعاض القواد والجنود من تأخر رواتبهم ، وقد أخذ يمتال لإنبائه بهذا الخبر بحيث لا يضيق بهم وبحيث لا يظن أنهم عمدوا إلى شغب أو ما يشبه الشغب ، فذكر أولاً أنهم مذلتون له منقادون ، وأنهم مستمسكون بغير طاعته استمساكاً يستغرق قلوبهم كأحسن ما يكون استمساك جيش بطاعة خليفته ، ثم أتبع ذلك بتأخر أرواقهم ورواتبهم حتى أجهدهم ما تحملوه من هذا التأخر وحتى اضطربت أمورهم ، ومثلهم — مع طاعتهم وانقيادهم — حرى أن يسند احتلالهم وأن يرعى لهم وفاؤهم ، فتعجل رواتبهم وأرواقهم . وكان للكتاب أثر بالغ في نفس المأمون إذ أمر أن تُصرف للجنود والقادة في الحال أعطياتهم ، لا لشهر ولا لشهرين بل لسبعة أشهر متتابعة . ويقال إنه أمر بأن يعطى لعمرو أيضاً راتبه لثمانية أشهر جزاءً وفاقاً لحسن عرضه للمسألة ودقة تعلقه في إيرادها وتصويرها .

ويروى صاحب^(٢) زهر الآداب أنه قدم على المأمون رجل من أهل الشام على عِدَّة سلفت له منه بتوليته بلده ، فطالب على الرجل افتظار خروج أمر المأمون بما وعده به ، فقصد عمرو بن مسعدة ، وعرض عليه المسألة ، وسأله

(١) الثالث : اضطربت

(٢) زهر الآداب ٤/١٥٨

ليصال رقعة إلى المأمون بها ، فقال له : اكتب بما شئت ، فإني موصله فتوسل إليه أن يتولى هو كتابة الرقعة عنه ، حتى يكون له فضلاً ، فكتب عمرو .
« إن رأى أمير المؤمنين أن يفتك أسراً عديته من ربيعة^(١) المظلل بقضاء حاجة عده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فعل موقفاً »

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرًا ، فأطلعه عليها وجعل يعجب من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابة له في هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة تفي دناءة المظلل »

وأكبر الظن أن المأمون لم يستحسن كلام الرقعة لدقة إيجازها وتعبيرها السريع عن مقصودها فحسب ، بل استحسناها أيضاً للصورة المبثوثة فيها ، وكان ابن مسعدة كثيراً ما يُعنى بالتصوير في كتابته على نحو ما مرَّ بنا في رسالته للحسن ابن سهل . وبذلك تحوّل فن الرسائل عنده إلى عبارة موجزة كعبارات التوقعات وإلى صور نادرة تستهوي القلوب بطرافتها ودقتها في التعبير عن المعنى الذي يريد تجسيمه . وكان يضيف إلى ذلك رقة في الشعور ، هي رقة الكاتب المتحضر الذي أرفه ذوقه ، والذي عودته آداب اللياقة الاحتياط فيما بورده على سمع الخليفة والوزير ، بحيث ينال إعجابه واستحسانه . ويروى صاحب المثل السائر^(٢) أن رجلاً من بني ضبّة ضرع إليه أن يشفع له عند المأمون في الزيادة لمنزله وراتبه المقدّر له ، فكتب إلى المأمون مستشفعاً له :

« أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين - لتطوئك^(٣) على - في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته ، والسلام »
وأعجب المأمون بدقة عرضه لشفاعته وإخراجه لها في معرض التعريض ، تلطفاً ، وإشارةً من طرف خفي إلى حرمة منه ، وما يختصه بالعطف والخطوة عنده . وبذلك كانت أوكد وسيلة وأوثق دريعة لإجابة طلبه وشفاعته ، مما جعل

(٣) تطوئك : نفصك

(١) ربيعة : عروة

(٢) المثل السائر ص ٣٩١

المأمون يوقع على الكتاب بقوله : « قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبتناك إليهما ، ووافقناك عليهما » .

وكان إيجازه المفرط مع دقته في أداء المعاني يروع المأمون روعة شديدة ، ويرؤى أنه أحبّ يوماً أن يرى مدى مقدرته في هذا الإيجاز ، فأمره أن يكتب إلى بعض العمال في العناية بشخص والاهتمام بأمره ، وأن يوجز كتابه ما أمكنه ، بحيث لا يتجاوز ما يكتبه سطرًا واحدًا ، فكتب^(١) :

« كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، معنني بمن كتب له ، وإن يضيع بين الثقاية والعناية حامله ، والسلام » .

ولا ريب في أن هذا الكتاب القصير - بل المفرط في القصر - يصور مدى ما كان يبذل ابن مسعدة من جهد عنيف في جمع المعاني الكثيرة وتركيزها في معنى يؤديها أجمل ما يكون الأداء ، سواء بما يختار من لفظ أتيق أو صورة بدیعة ، وكأنه لا يصوغ كلاماً ، وإنما يقطر من الكلام شدًى فائحاً شديد التأثير في قارئه وسامعه .

وعلى هذا النحو تحوّلت الكتب عند ابن مسعدة إلى كلمات قصار ، ككلمات التوقيعات ، بل لعلها أشد قصراً ، وأقوى منها حدة . وما نشك في أنه تأثر في هذا الاتجاه بالحكم الكثيرة التي تُرجمت في عصره ، على نحو ما نرى في الأدب الصغير والكبير لابن المقفع ، وكأنه أراد أن يجعل كتبه أو على الأقل طائفة منها حكماً وأمثالاً تدور على ألسنة الكتّاب والأدباء . وروى له ابن خلكان رسالة طويلة مسجوعة كتب بها إلى بعض الرؤساء ، وقد أهمته وأحزته زواج أمه ، لينفّس عنه ، وما إن قرأها حتى سحره بيانه واعتذاره عن أمه وذهب عنه الهم والحزن . وشكّ ابن خلكان في الرسالة وقال إنها تنسب إلى ابن العميد ، وهو محق في شكه ، لسبب بسيط ، هو طولها الذي لا تألفه عند ابن مسعدة ، فقد كان يقبض يده عنه ولا يبسطها إلا على حروف معددة محكمة .

(١) وفيات الأعيان ١/٩٣ .

ابن الزيات^(١)

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، اشتهر بابن الزيات ، لأن جده أباناً كان يجلب الزيت من موطنه إلى بغداد متجراً فيه ، وأصله من مقاطعة جيل جنوبي بغداد ومن قرية تسمى الدسكرة . وقد دفع ابنه عبد الملك إلى احتراف التجارة ، وجَدَّ فيها حتى صار من تجار الكَرَّخ^(٢) المياسير ، ووُلد له محمد سنة ١٧٣ ونشأ يحب الأدب ، فأقبل ينهل منه ، كما ينزل من علوم اللغة ومن ينابيع الآداب الأجنبية الشائعة في عصره ، حتى شدا الشعر ونبع فيه كما نبغ في النثر . وحاول أبوه أن يصرفه عن هذا الاتجاه إلى التجارة المرهبة فكان يصدُّه ، ويلزم الأدب وطلبه ، ويلزم الدواوين محاولاً أن يلفت من فيها إلى مهارته الأدبية ، وقال له أبوه يوماً : « والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرَّتك ، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفئٌ » ، ولك ولأبيك فيه مالٌ وجاه ، وتطلب الآجل الذي لا تدرى كيف تكون فيه ، فقال : والله لتعلمنَّ أينما ينتفع بما هو فيه : أنا أم أنت ، ثم شخص إلى الحسن بن سهل ، فامتدحه بقصيدة ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه . ويقال إنه لما مدح ابن سهل ووصله بالدرهم المذكورة مثَّـلَ بين يديه ، وأنشده :

لم أمتدحك رجاء المال أطلبُهُ لكن لتُدبسنِي التَّحجِيلَ والغُرَّرا^(٣)
وليس ذلك إلا أننى رجلٌ لا أطلب الورْدَ حتى أعرف الصِّدْرَا^(٤)

يشير بذلك إلى مأربه من مديحه ، وأنه لم يمدحه طلباً للمال ، وإنما ممدحه طلباً لتعيينه كاتباً بالدواوين ، وعيَّنه الحسن بن سهل ، فحقَّق له أملاً طالما كان يراوده .

٧٠/٢ .
(٢) الكرخ : محلة الأسواق والتجار ببغداد .
(٣) التحجيل : بياض في قوائم الفرس .
الفرر : جمع غرة ، بياض في وجهه . والاستمارة واضحة .
(٤) الورد : ورود الماء . الصدر : الصدور والرجوع عنه .

(١) انظر في ترجمة ابن الزيات الأغاني (طبعة الساسي) ٤٦/٢٠ والفهرست ص ١٧٧ وتاريخ بغداد الخطيب البغدادي ٣٤٢/٢ والفخرى ص ١٧٥ والمسعودي ٣٩/٤ والطبري ٣٤٣/٧ وغرر الخصاص الواضحة للوطواط ص ٤١٠ ، ١٤٢ ووفيات الأعيان لابن خلكان

ومضى ابن الزيات يختلف إلى الدواوين وهو يتابع مدارسته لعلوم اللغة والنحو ، ويظهر أنه تزود منها زاداً وافراً ، فقد ذكر الرواة أن أبا عثمان المازني حين قدم بغداد كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في مسائل علم النحو ، فإذا اختلفوا في مسألة يقع فيها الشك قال لهم : ابعثوا إلى هذا الفتي الكاتب - يعني ابن الزيات - واسألوه واعرفوا جوابه ، وكانوا يفعلون ، ويعرضون ما يجيب به على المازني ، فيرى أنه الصواب الذي يرتضيه ، ويشرحه لهم ويقفهم عليه .

وعلى نحو ما كان عالماً باللغة والنحو كان شاعراً بارعاً ، وممّرت بنا في حديثنا عن الشعر مرثية لزوجه ، وهي من روائع المراثي ، وله وراءها مراث أخرى فيها وأشعار كثيرة ، كوّنت له ديواناً نُشر في القاهرة ، ومن يرجع إليه يجد شاعريته فياضة ، كما يجد الشعر مدللاً له في المواقف المختلفة التي قد يصعب فيها على غيره ولا يسلس قياده . ويقال إنه لما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة حين عقد المأمون لعلی الرضا البيعة بولاية العهد ، وتطورت الظروف على نحو ما قدمنا ولم يتم أمره استتر خوفاً من المأمون وانتقامه ، وظل مستخفياً سنوات لا يُعرّف موضعهُ ، حتى إذا ظهر وعفا عنه المأمون طالبه التجار بأموالهم التي كان قد اقترضها منهم فكان يقول : إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فتيّهم والأمر الآن إلى غيري ، وكان قد اقترض من عبد الملك بن أبان عشرة آلاف درهم ، وكان إذا طالبه بماله لقيه بنفس الجواب ، فنظم ابنه محمد قصيدة يصور فيها ثورته على المأمون مقارناً بينها وبين ثورة الأمين وما ناله من القتل جزاء غدرة ونكته ، حتى يوغر صدر المأمون عليه ، ويطير به طيرة بطيئاً سقوطها . ومضى بالقصيدة إلى ابن المهدي ، فأنشدها له ، وقال : والله لئن لم تعطني المال الذي اقترضته من أبي لأوصلنّ هذه القصيدة إلى المأمون ، ففزع إبراهيم وجزع ، وقال له متوسلاً : خذ مني الآن بعض المال ، واجعل الباقي أقساطاً ، ولا تظهر القصيدة ، ووفى كل منهما لصاحبه .

وما زال ابن الزيات يعمل في الدواوين حتى وكى مقاليد الخلافة المعتصم ، فقرّبه منه ولم يلبث أن استوزره ، ويقال إنه طلب حينئذ أن لا يلبس القباء^(١) على

(١) القباء : ثوب فارسي قصير .

عادة الوزراء وأن يلبس الدرّاعة^(١) ويتقلّد عليها سيفاً بحمائل ، فأجيب إلى طلبه ، ويحسُّ بإقبال الدنيا عليه ، فيفتح أبوابه للشعراء ، ويُجزل لهم في العطاء ، ومن أهمّ مُدّاحه كما مرّ بنا أبو تمام ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض أبيات من قصيدته التي وصف فيها قلمه وبلاغته . وكانت قد انعقدت أيام عمله في الدواوين صلة وثيقة بينه وبين الحسن بن وهب ، فلما ولي الوزارة قلّده ديوان الرسائل ، وربما كان الحافظ أهمّ أدبب توثقت به صلته في وزارته .

وتوفّي المعتصم وولّى ابنه الواثق ، فظل وزيراً له ، ولعل من الغريب أن نجده في وزارته لهما جميعاً بعادى أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي المشهور ، وكان المعتصم جعله قاضي القضاة واتخذه كما اتخذ ابنه الواثق ناصحاً ومشيراً . ودبّ التنافس بينه وبين ابن الزيات . حتى انقلب إلى عداوة وتهاج بالشعر ، وكان ابن أبي دؤاد يحرض الشعراء على هجائه ويصلهم ، ويقال إن بعض الشعراء هجاه بقصيدة عدة أبياتها سبعون بيتاً ، فبلغ خبرها ابن أبي دؤاد ، فقال :

أحسنُ من سبعين بيتاً سُدّي جمعك إياهن في بيّتٍ
ما أحوج الناس إلى مطرٍ نذهبُ عنهم وصرّ الزيتِ
وكان ابن الزيات لبراعته في الشعر يكيل له الصاع صاعين ، فاضطربت العداوة بينهما اضطراباً . وكانت في ابن الزيات قسوة شديدة قلما تُؤلّف في أمثاله من الأدباء الذين رزقوا دقة في الحس ، ورهافة في الشعور ، ويؤثر عنه أنه كان يقول : « الرحمة خور في الطبيعة وضعف في المسنة^(٢) ، ما رحمت شيئاً قط » . وبلغ من قسوته أن اتخذ تسنوراً من حديد . وجعل فيه مسامير . ليعذب به المطالبين بالأموال من أرباب الدواوين . وكان في وزارته للواثق ، يتجهّم للمتوكل ، وحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق ، وطمح إلى إنفاذ ذلك بعد وفاته ، بينما تحمس ابن أبي دؤاد للمتوكل ، فلما ولي الخلافة استوزر ابن الزيات أربعين يوماً ليطمئن . وظل ابن أبي دؤاد يغريه به لينكبه . حتى أصاح له وقبض عليه وطالبه بالأموال ، ولم يلبث أن أدخله التسنور الذي صنعه . وقبده فيه بخمسة عشر رطلا من حديد ، وظل به أربعين يوماً يعذب عذاباً شديداً .

(٢) المنه . القره

(١) "درّاعة : جبة فارسية .

حتى مات ، وكان موته في آخر ربيع لسنة ٢٣٣ للهجرة .

ولم تدُرْ لابن الزيات رسائل كثيرة في كتب الأدب ، مع كثرة ما يدور فيها من رسائل موجهة إليه ، ويظهر أنه وَاكَلَّ في وزارته للحسن بن وهب كتابة الرسائل الديوانية والرد عليها ، ومن القليل الذي احتفظت به تلك الكتب العهدُ للوائح على مكة ، وقد كتبه بحضرة المعتصم على هذه الصورة^(١) :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين قد قلَّدك مكة وزمزم ، تُراث أهلك^(٢) الأقدم ، وجمدك^(٣) الأكرم ، وركضة جبريل ، وسقيا إسماعيل وحقّر عبد المطلب ، وسقاية العباس ، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته . »

وابن الزيات يشير في هذا العهد المقتضب إلى قصة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام حين ولدت ابنها إسماعيل منه ، وغارت زوجه الثانية سارة ، واضطرت أن يُنزلهما منزلاً بعيداً عنها ، فأنزلهما بوادي مكة الجذب ، وذكر ذلك القرآن الكريم في قوله جلَّ شأنه على لسان إبراهيم : (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم) . وأعيانها أن يجدا ماء يستقيان منه ، وبينما هاجر قد أخذها اليأس من وجوده إذا جبريل يهبط راكضاً على موضع ، لا تلبث بئر أن تتفجّر منه ، هي بئر زمزم ، فتستقي منه هاجر وإسماعيل . وتمر الأيام فتطمر البئر وتمحى معالمها وتظل مطمورة ، حتى يُلقَى في روع عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفرها ، وما إن ضرب بمعوله فيها حتى فاض الماء ، واتخذها لسقاية الحجيج ، وورث ابنه أبو طالب شرف هذه السقاية بعده وورثها عنه العباس أخوه جد العباسيين . وإلى كل هذه القصة يشير ابن الزيات في عهد الوائح ، وكأننا نلتقي عنده بأسلوب ابن مسعدة المبنى على الإيجاز والاقتصاد في القول من جهة ، وعلى التأنيق في التعبير من جهة ثانية ، تأنيقاً يجره إلى السجع

ويظهر أن ابن الزيات لم يكن يعتمد إلى السجع دائماً ، وكأنما كان يرى فيه مبالغة في التكلف ، فقد احتفظ له ابن عبد ربه برسالة إلى أحد العمال تخلو من السجع ، وهي تجرى على هذا النمط^(٤) :

(٣) يريد بجده الأكرم : إبراهيم الخليل .

(٤) العقد الفريد ٢٤١/٤ .

(١) زهر الآداب ١٦٠/٤ .

(٢) يريد بأبيه الأقدم : إسماعيل عليه السلام .

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة^(١) : إما تقصير في عملك دعائك للإحلال بالحزم والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره^(٢) لأهل الفساد ومداهنة لأهل الرئسب ، وأية هاتين كانت منك مُحَلَّةٌ التُّكْرَبُكُ وموجبة العقوبة عليك ، أولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظيرة^(٣) والأخذ بالحجة والتقدم في الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أُقِلتَ^(٤) من عظيم العشرة يجب اجتهادك في تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام » .

والقصد إلى الإيجاز واضح في الرسالة ولكنه إيجاز من درجة ثانية غير درجة الإيجاز عند ابن مسعدة ، فإيجاز ابن الزيات لا يتحول إلى ما يشبه التوقعات والحكم والأمثال ، إنما هو ضرب من الاقتصاد في التعبير ، مع الاتساع في المعنى وبسط أطرافه قليلا ، ليحيط بكل ما يدور في نفس الكاتب ، ومع الوفاء برصانة اللفظ وجزالته ومتانته ، ومع الدقة في انتخابه واختياره ، دون تكلف لحمال صوتي يجرُّ إلى السجع أو إلى الازدواج الذي كان يستخدمه أحمد بن يوسف وسهل بن هرون وأضرابهما من الكتاب ، وما يصور ذلك عنده ما احتفظ به ابن عبد ربه من بعض فصوله مثل قوله^(٥) :

« إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة وإحياء السنن الصالحة . فإذا أدّى كلُّ إلى كلِّ حقه كان ذلك سبباً لتمام المعونة واتصال الزيادة واتساق الكلمة ودوام الألفة » .

فالفكرة تؤدّي في عبارة موجزة تُلِمُّ بأطراف المعنى ولكن دون إسهاب أو إطباب ، ودون محاولة لتحقيق اللذة الفنية عن طريق السجع والازدواج وما ينحو نحوهما ، على شاكلة قوله في فصل آخر^(٦) :

« إن أعظم الحق حتى الدين ، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة أن يرأعى له حسب ما رعاه الله به ، ويُحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه » .

(٤) أقات : نهضت

(٥) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .

(٦) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .

(١) اللائمة : اللوم .

(٢) مظاهره : مساعدة .

(٣) النظرة : التأجيل .

والرغبة في الإيجاز والاقتصاد في القول واضحة في هذا الفصل وخاصة في كلماته الأخيرة . ولم تُؤثّر لابن الزيات رسائل شخصية ثرية ، وكأنه كان يقدم الشعر على النثر في هذه الرسائل ، لمطاوعته له وسهولته عليه ، إذ تروى له كتب الأدب بعض رسائل إخوانية شعرية كان يتبادلها مع بعض أصدقائه وخاصة الحسن بن وهب ، وقلما تجاوزت أبياته فيها عدد أصابع اليدين . ويروى أن ابن وهب مرض أياماً ولم يأته رسوله ولا تعرف خبره ، فكتب إليه رسالة شعرية يعاتبه فيها ، وردَّ عليه ابن الزيات برسالة شعرية أيضاً ، يعتذر إليه متصلاً من علمه بمرضه ، وطالباً إليه التفضل بصفحه والتطول بعفوه ، على هذه الشاكلة^(١) :

دَفَعَ اللهُ عَنْكَ نَائِبَةَ الدَّمِ رِ ، وحاشاك أن تكون عليلاً
أَشْهَدُ اللهُ مَا عَلِمْتُ وماذا ك من العُدْر جائزاً مقبولاً
ولعمري أن لو علمت فلا زمة تُك حَوْلًا لكان عندي قليلاً
فاجعلني لي إلى التعلق بالعُد ر سبيلاً إن لم أجد لي سبيلاً
فقدماً ما جاد بالصفح والعَف و وما سامح الخليل الخليلاً

ويقول صاحب الأغاني إنه كان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب ، ويسوق شاهداً على ذلك أنه « جلس يوماً للمظالم ، فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال الرجل : نعم تدنني إليك ، فأني مظلوم ، فأدناه ، فقال : أنا مظلوم ، وقد أعوزني الإنصاف ، قال : ومن ظلمك ؟ قال : أنت ، ولست أصل إليك فأذكر حاجتي ، قال : ومن يحجبك عني وقد ترى مجلسي مبدولاً ؟ قال الرجل : يحجبني عنك هيتي لك وطول لسانك وفصاحتك واطراد حجتك ، قال : فقيم ظلمتك ؟ قال الرجل : ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصباً بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أدبته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها ، فيبطل ملكي ، فوكيلك يأخذ غلّتها وأنا أؤدى خراجها » . وتمضى القصة فتذكر أن ابن الزيات ردَّ على الرجل ضيعته ووهبه بعض المال ليستعين على عمارتها . وأبو الفرج إنما ساق القصة ليدل على ما شاع عند معاصري ابن الزيات من فصاحته وبلاغته ولسنه وقوة حجته .

خاتمة

تحدثتُ في هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول عن الحياة السياسية وما اتصل بها من قيام الدولة العباسية وبناء بغداد وسامراء واتخاذهما حاضرتين متعاقبتين ، كما تحدثت عن غلبة الطوايع الإيرانية على نظم الحكم وما ارتبط بها من دواوين ووزراء وتقاليد مختلفة . وقد مضى العلويون يقاومون أبناء عمهم العباسيين سرّاً وجهراً ، بينما ضعف شأن الخوارج ضعفاً شديداً ويُعدّ أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس ، ويخلفه المهدي فيقضى على ثورات الحرمية وترتعد فرائص البيزنطيين أمام جيوشه في غير موقعة . ويعقبه ابنه الهادي لمدة قصيرة . ويتولى مقاليد الخلافة بعده أخوه هرون الرشيد ، وعصره يعد أزهى عصور الخلافة العباسية ، بما شاع فيه من رخاء ، وقد محقت جيوشه الخوارج محقاً وسحقت البيزنطيين سحقاً . ويخلفه ابنه الأمين لسنوات قصيرة ، ويتولى بعده المأمون ، ويقود حركة عقلية واسعة ينتصر فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ، بينما يقضى قواده على كثير من الثورات ، ويقلم أظافر البيزنطيين مراراً، ويخلفه أخوه المعتصم فيقضى على ثورة بابك الخرمي، ويدق أعناق البيزنطيين دقاً في عمورية وغير عمورية ، ويعقبه ابنه الواثق، وبه يُختتم العصر العباسي الأول .

وكانت بغداد وسامراء تحفل بالقصور الباذخة وتكتظ بالثراء، وصبّت سيول منه في حجور المغنين والشعراء والعلماء ، مما أعدّ لنهضة واسعة في الفنون والآداب والعلوم ، وشاع الترف في الملابس والمطاعم والمشارب كما شاعت أدوات مختلفة للترويح عن النفوس ، وكثر الرقيق والحواري وشُغِفَ الناس بالغناء وبضروب مختلفة من الظرف وتورط كثيرون في الخمر والمجون . وكان انتصار العنصر الفارسي على العنصر العربي في الثورة العباسية سبباً في أن تبرز موجة حادة من الشعبية ، ورافقتها موجة حادة من الزندقة ، جعلت المهدي ينصب ديواناً لتعقب الزنادقة ومحاكتهم ، ويبعث العلماء للرد على بُهتانهم . وتغنّى كثيرون بالزهد ورفض

الدنيا ومتاعها الزائل ، وتعالَت أصوات الوعَّاظ والقُصَّاص وأخذت تظهر مقدمات التصوف .

وقد حدث امتزاج جنسى ولغوى وثقافى واسع بين الشعب العربى والشعوب المستعربة . إذ امتزجت به فى السكى والتزاوج وفى الأخلاق والعادات ، واتخذت لغته لساناً لها تُتَرَجَّمُ به عن ضميرها ومشاعرها وذات نفسها ، وسرعان ما استوعبت تلك اللغة الثقافات التى كانت ماثوثة فى هذا المحيط الجليد سواء أكانت هندية أم فارسية أم يونانية أم دينية خالصة . ونشطت الحركة العلمية نشاطاً واسعاً ، فشاع التعليم فى الكتاتيب والمساجد وكثر العلماء فى كل فن ، وانتشر اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة ، وتُرجمت علوم الأوائل إلى العربية من هندية وفارسية ويونانية ، وأنشأ الرشيد للترجمة داراً كبيرة هى دار الحكمة وألحق بها المأمون مرصداً فلكياً ضخماً . وأخذت تُوضَعُ منذ أوائل العصر العلومُ اللغوية : علوم النحو والتصريف والعروض وُوضِعَ أول معجم للعربية ، وهو معجم العين المشهور . وتمت المصنفات التاريخية . وُصنفت فى الحديث النبوى كتبٌ جامعة . وكثرت المصنفات فى تفسير القرآن الكريم . ووُضعت مذاهب الفقه الأساسية : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل . وأحكم المتكلمون أصولهم العقيدية وخاصة المعتزلة الذين تعمقوا فى المباحث الفلسفية .

وازدهر الشعر ، وحذق الشعراء الموالى لغته ، واستوعبوا مقوماتها وخصائصها نافذين إلى أسلوب مولد جديد ، اعتمدوا فيه على الألفاظ الواسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة البدو الجافية ، أسلوب يمزج بالجزالة والرصانة حيناً ، وحيناً بالعدوبة والنعومة . واصطبغ شعرهم ومعانيه بحكم رقيهم الفكرى بطوايع عقلية دقيقة ، وقد مكن لها المعتزلة بمباحثهم العميقة وطرقهم فى الاستدلال وتوليدات المعانى وتفريعاتها المشعبة . وظل الشعراء ينظمون فى موضوعات الشعر العربى القديمة متطورين بها قليلاً أو كثيراً ، وبذلك حافظوا على شخصيته الموروثة ، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية . وقد اضطرم المديح اضطراماً بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية والأحداث الكبيرة ، وبما أضافوا إلى عناصره البدوية القديمة من عناصر حياتهم الحضارية وملاكتهم العقلية . وتطور

الهجاء بما أشاعوا فيه من روح الاستخفاف والسخرية المريرة والفكاهة السامة . وتحولوا بالفخر القبلي إلى فخر شعوبى محتدم . واتسعوا بالثناء . فزروا المدن المنكوبة والحيوان والطير . وتفننوا فى الغزل بنوعيه الإباحى والعفيف . وتبدلوا فى شعر المحبون والخمر . ونظموا كثيراً فى الزهد . ونفذوا إلى موضوعات جديدة ، إذ أفردوا قصائد لتصوير بعض المثل الخلقية أو تصوير الرياض ومظاهر الحضارة العباسية أو بكاء البصر والتفجع على فقدته أو وصف بعض الغرائز كغريزة التغيرية أو وصف حياة الشظف والبؤس والمسغبة أو نظم بعض الفكاهات والنوادر . واستحدثوا فن الشعر التعليمى ونظموا فيه كثيراً من التاريخ والقصص والمعارف والنحل المختلفة . وأكثروا من النظم على الأوزان القصيرة والمجزوءة ونفذوا إلى اكتشاف أوزان المضارع والمتنضب والمتدارك أو الحجب ، وإلى أوزان أخرى لم يستخدمها العرب قبلهم ، غير أنه لم يكتب لها الشيوخ لنقص أنغامها بالقياس إلى الأوزان الموروثية . وعرفوا وزناً شعبيّاً هو وزن المواليا . وجددوا تجديداً واسعاً فى القوافى ونمط القصيدة ، فاستحدثوا المزدوجات والرباعيات والمسمطات . ونظموا صورة تُعدّ أمّاً للموشحات مما يدل على أنها ترجع إلى أصول عباسية .

وأعلامُ الشعراء فى العصر بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، فأما بشار فكان فارسى الأب روى الأم ، وكان أكمه ، ووُلد على الرقّ ، ونشأ فى البصرة نشأة عربية خالصة ، فحذق اللغة وبرع فى الشعر ، وكان يجالس المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية ، فاضطرب بين هذه المقالات وصار إلى الشك ثم إلى الزندقة ، واستظهر شعوبية آثمة . وهو يُعدُّ زعيم الشعراء المحدثين بما رسم لهم من التمسك بأصول الشعر التقليدية والملاءمة بينها وبين العصر ومجتمعهم وحضارته وثقافته . وقد أكثر من الفخر الشعوبى الذميم ، وأثر فقده لبصره واضحٌ فى غزله فهو فى أكثره غزل حسى يصدر فيه عن الغريزة النوعية صدوراً يُزرى بمروءة الرجل الحر الكريم مما جعل الوعاظ يذمونه ذمّاً شديداً . وأكثر أيضاً من وصف مجالس الخمر والغناء دون رادع من خلق أو دين إذ كان زنديقاً وقُتل على الزندقة . وكان أبو نواس فارسى الأب والأم ، ونشأ مثل بشار فى البصرة ، وتحول عنها إلى الكوفة مع شيطان كبير نفث فيه من غيبه ومجونه

وإنَّمه هو والبة . ورحل إلى البادية يتزود من ينابيع اللغة الأصيلة وعاد إلى البصرة ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصاص والمحدثين وعَسَبَ من الثقافات الأجنبية عَسَبًا . ونزل بغداد وامتدح الرشيد والبرامكة ، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فاتصل بالأُميين . وشعره يجرى في اتجاهين : اتجاه تقليدى في المديح والرثاء واتجاه تجديدى في الهجاء والغزل والمجون والطرِّدبات ، وهو أكثر شعراء عصره مجوناً وإفحاشاً فيه ومع إكثاره من الجهر بالفسق والمعصية يردد اعتياده على عمو الله ومغفرته . وهو - غير منازع - شاعر الحميرية على توالى العصور العربية بما ابتكر في صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة . أما أبو العتادية فكان نبطيّاً ونشأ بالكوفة لأب يشتغل بالحجامة ، وكان سبي السيرة في صباه إذ انتظم في سلك المحنّثين . وعمل مع أخ له في بيع الحرار وصنعها . واختلف إلى بينات الرواة واللغويين والعلماء والمتكلمين ، ولم يلبث أن اتقن العربية وبرع في الشعر فرحل إلى بغداد ومدح المهدي وتعلق بجارية من جواري قصره تسمى عتبة رنظم فيها غزلاً كثيراً ، ومدح ابنه الهادي والرشيد ، ويقبل على الخمر والمجون مفرطاً فيهما . ويحدث انقلاب في حياته . فيتزهد ويلبس الصوف ، ويظل متصلاً بالخلفاء والحسن بن سهل وزير المأمون حتى يبرح دنياه وأشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب فيو في جانب منها يمدح ويتغزل ويصف الخمر ، وفي جانب يتزهد وينثر الحكم مع التفنن في المرثي ، وتشيع في أساليبه سهولة وليونة مفرطة . وكان يعاصره مسلم بن الوليد ، وهو أيضاً ينتظم في عداد الموالى ، وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى البصرة . وأكب على الشعر القديم وشعر بشار خاصة . حتى إذا لمع اسمه بين الشعراء المحيدين رحل إلى بغداد فمدح الرشيد وقواد الدولة ووراءها وعمّالها وولاءه بأخرة الفضل بن سهل وزير المأمون بريد جرجان فظل بها حتى وفاته . واشتهر بنجويده لشعره والتدقيق في معانيه والعناية برصانة اللفظ وجرائته ونصاعته والإكثار من ألوان البديع . وأبو تمام الطائي خاتمة هؤلاء الأعلام . وقد ولد بجاسم ، وهي قرية من قرى دمشق ، وفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرحل إلى حمص . ثم إلى القسطنطينية ، وعاد إلى الشام وتردد بينها وبين الرقة والموصل ، ثم هبط بغداد ، ورحل عنها إلى خراسان . ثم عاد إليها ، وتحول معها مع المعتصم إلى « سُرّ من رأى » ولزم بابيه وأبواب وزرائه وكبار رجال الدولة ، وظل وثيق الصلة بابنه

الواثق ووزيره ابن الزيات وكتابه الحسن بن وهب ، وولاه الأخير بريد الموصل وسرعان ما وافته منيته . وشعره يفيض بثقافات عصره العربية والأجنبية وخاصة الثقافة الفلسفية والكلامية ، واشتهر بأنه صاحب مذهب جديد ، يقوم على التدقيق في المعاني والأخيلة والتعمق فيها تعمقاً قد يفضي إلى الغموض ، كما يقوم على استخدام ألوان البديع ، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من أبياته ، بل حتى لتوهج فيها توهجاً .

وكرر حينئذ شعراء السياسة والمديح والهجاء ، فكان هناك شعراء الدعوة العباسية الذين ينافحون عن العباسيين زاعمين أنهم أصحاب الخلافة الشرعيون ، ومن أشهرهم أبو دلالة نديم السفاح وغيره من الخلفاء ، ومروان بن أبي حفصة وسلم الحاسر اللذان وجهها شعرهما نحو الدفاع عن حق العباسيين في الخلافة وإنكار حق العلويين فيها والرد عليهم ردّاً عنيفاً . وكان شعراء الشيعة يدافعون بدورهم عن حق العلويين في الخلافة ، يجهورون بذلك كلما سنحت لهم الفرصة ويخفون كلما أشفقوا على أنفسهم من العباسيين ، ومن أشهرهم السيد الحميري وكان كيسان الحقيده لا يرى بأساً في مديح الخلفاء العباسيين ، كما كان لا يخفي حبه للعلويين ، وأكثر من تغنيه بمناقب علي بن أبي طالب وذم قاتلي الحسين وتلذّبهم . ومثله منصور النمرى الشيعي الإمامي ، وكان يمدح العباسيين ويأخذ جوائزهم ويتفجع على قتلى آل البيت وحقوقهم المهذرة في الخلافة . ومثلها دعبل ، وكان يعلن تشيعه إعلاناً صريحاً . وتشكك أبو العلاء المعري في صدقه وقال إنه كان يريد التكبس بإعلان تشيعه . وكان ديك الجن مخلصاً في تشيعه ، غير أن ما أثر من شعره الشيعي قليل . وكان البرامكة بحوراً فياضة ، فنظم الشعراء فيهم كثيراً من المدايح ، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد اللاحق مترجم كليلة ودمنة شعراً ، وأشجع بن عمرو السلمي ، وله قصائد طنانة فيهم وفي انتصارات الرشيد على تغفور إمبراطور بيزنطة . وكان كثير من الوزراء والقواد والولاة يجزؤون العطاء للشعراء . فدبجوا مدايح كثيرة فيهم ، على نحو ما يلقانا عند أبي الشيبان شاعر عقبة بن جعفر الخزاعي والي الرقة بالموصل ، وعبد الله بن أيوب التميمي شاعر يزيد بن مزيد قائد الرشيد ، وعلى بن جبلة شاعر أبي دلف العجلي قائد

المأمون ، والحربى شاعر عثمان بن خريّم المرّى والى أرمينية . وبرع فى الهجاء شعراء كثيرون من أمثال أبى عبيدة المهلبى وكان يُكثّر فى هجائه من الإقذاع الشديد ، وعلى شاكلته عبد الصمد بن المعدّل وكان هجاءً شكساً حديد اللسان .

وتكاثرت شعراء الغزل بنوعيه النقى العفيف والمادى الصريح ، وكان النوع الثانى أكثر شيوعاً لكثرة الجوارى والإماء ، وخير من يصور النوع الأول العباس بن الأحنف الذى عاش يتغنى بالغزل العذرى الطادر . أما النوع الثانى فخير من يصوره ربعة الرقى وغزله يسيل عدوية . وكان شعراء المحبون والزندقة كثيرين كثرة مفرطة لما شاع من فساد الأخلاق وكثرة النحل والمقاتلات والمذاهب الدينية والفلسفية ومن أشهرهم حماد عجرد ، وكان يخاطب مجونه بزندقة أشربتها روحه . ومنهم مطيع ابن إبّاس وهو من أكثر الشعراء مجاهرة بالفسق والعصيان . ومنهم صالح بن عبد القدوس ولم يكن ماجناً ، ولكنه كان زنديقاً كبيراً ، إذ كان يعتنق عقيدة الثنوية المانوية مجاهراً بها ، ومجادلاً مناظراً إلى أن أمر الرشيد بضرب عنقه ، وجمهور شعره أمثال وحكم . وكان غير شاعر يأخذ نفسه بحياة زاهدة ناسكة على نحو ما نجد عند عبد الله بن المبارك ودعوته إلى الجهاد فى سبيل الله وإلى التقوى واجتناب الآثام ، وعند محمد بن كناسة الكوفى وتغنيه طويلاً برفض الدنيا ومتاعها الزائل ، وعند محمود الوراق ودعوته إلى طاعة الله والرضا بقضائه والتوكل عليه والقناعة بكفاف العيش مع التفكير الدائم فى الموت والفناء . وشارك المعتزلة فى الشعر وفنونه ، وكان منهم من ينظم فى نفس الأغراض التى ينظم فيها الشعراء من حواه مثل الجتنابى الذى يروع قارئه بمعانيه الطريفة ، ومثل النظام الذى يصنع أشعاره فى الغزل وغير الغزل بصيغة كلامية واضحة . ومنهم من كان ينظم فى حوار أهل الملل والنحل مثل بشر بن المعتمر وكان يكثّر من الحديث عن عجائب الله فى خلقه . وصوّر نفر من الشعراء فى أشعارهم النزعات الشعبية صادقين عن روح العامة وأحاسيسها ، وخير من يمثلهم أبو الشمقمق وكان يستخدم فى شعره أحياناً ألفاظ العامة ، مجسماً فقره ويؤسه ومسغبتة وأسماه البالية ، وكثيراً ما يعرض ذلك فى صورة فكهة .

وتطور النثر فى هذا العصر وتنوّع وكثرت فنونه بما ملأ أوانيه اللفظية من

الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وما استوعبه من صنوف العلوم وذخائر الفلسفة ، وقد انبرى المتكلمون معترلة وغير معترلة يبحثون في الأسس التي تقوم عليها براعة القول وبلاغته ، واقتبسوا كثيراً مما سجلته الأمم القديمة من أصول البيان . وعنى كتّاب الدواوين هم الآخرون بفصاحة الكلام وبلاغة القول ، مما جعلهم يتحاولون بدواوينهم إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة . وحقاً ضعف شأن الخطابة السياسية والحفلية ، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعاظ وقصص وقصصا ازدهرت ازدهاراً عظيماً ، كما ازدهرت المناظرات وخاصة في بيئة المعتزلة إذ كانوا يكثرون من حوار زعماء الفرق والنحل في المساجد ومجالس البرامكة ومجالس المأمون ، مثيرين ما لا يحصى من دقائق المعاني وخفيات الأدلة ، وبلغ من إتقانهم للجدل وقدرتهم على الإقناع وإفحام الخصوم أن نفذوا كثيراً - بقصد إظهار المهارة الجدلية - إلى تقبيح الأشياء المستحسنة وتحسين الأشياء المستقبحة ، مما هيأ لظهور كتب المحاسن والمساوى . واتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما اتصل بها من عهود ملوك الفرس ووزرائهم ورسائلهم إلى العمال ووصاياهم وتوقيعاتهم ، وكان لذلك أثر بعيد فيما كان يصدر عن الخلفاء والوزراء ويدبجه الكتاب من رسائل وعهود ووصايا وتوقيعات . وكان الكتّاب يحرصون في هذا النثر الديواني الرسمي على بلاغة القول والتفنن في الأفكار والمعاني ، ويلقانا في عصر كل خليفة كتّاب ذاع صيتهم وطارت شهرتهم كل مطار . وازدهرت حينئذ الرسائل الإخوانية ، إذ تناول كثير من الكتاب الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء من ثناء وشكر وهجاء وذم وعتاب واعتذار واستعطاف وتهنئة وتعزية ، وأخذوا يجهّرون فيها رسائل شخصية مفتنّين في أساليبها البيانية وما يصورون بها من عواطفهم وأهوائهم . ونفذ نفر منهم إلى كتابة رسائل أدبية طريفة تتناول النفس الإنسانية وعواطفها وسلوكها وحياتها العاملة وما يهديها سبيل الرشاد . وأخذ بعض الكتّاب البارعين يحاكون ما نقاه ابن المقفع وغيره إلى العربية من القصص الحيوانية والرسائل السياسية الفارسية .

وأعلام الكتاب في العصر ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات . أما ابن المقفع فكان فارسي الأصل ونشأ ما نصره

في ولاء آل الأئمة ، وهم بيت فصاحة وخطابة . فحذق العربية ، وعمل في دواوين العراق آخريزمن بنى أمية ، ثم في دواوين سليمان بن علي وعيسى بن علي عمي المنصور ، وكان لا يزال مجوسياً فأسلم على يد الأخير . وأغرّى به المنصور سفيان بن معاوية والى البصرة ، فقتله . وقد اشتهر بترجمته عن لغته بعض كتب الأدب الفارسي وكتاب كليله ودمنة الهندي الأصل وبعض منطق أرسططاليس . وكان آية في البلاغة وحسن الأداء وفصاحته ، على نحو ما يتضح في الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب اليتيمة ورسالة الصحابة . وهي جميعاً تفيض بالوصايا السياسية والاجتماعية والخلقية . وتعدّ ترجمته لكليلا ودمنة من روائعه الفذة . وله رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وكان سهل بن هرون مثله فارسي الأصل ، وعكف على الآداب الأجنبية . وشارك في الترجمة عن لغته الأصلية ، ويقال إنه كانت فيه نزعة شعبية ، وكان فيه ميل إلى التندر ، ووظّفه الرشيد بخزانة الحكمة التي أنشأها ، وقرّب به المأمون وجعله خازناً لبعض أقسامها . وكان من أفراد عصره في البلاغة والبيان وصحة المنطق . وعنى بتأليف قصص حيوانية على شاكلة كليله ودمنة ، وهو يملؤه بالثريّة السياسية والاجتماعية والحكم والأمثال على شاكلة كتابه « النمر والثعلب » ومن رسائله الأدبية الطريفة رسالته في الاحتجاج للبحل . ورسالته الأخرى في نصرة الزجاج على الذهب . وله رسائل شخصية بديعة . ومن أهم ما يميزه عنايته بدقة معانيه وتوفير الازدواج والجمال الصوتي لألفاظه وأساليبه . أما أحمد بن يوسف فكان من بيت كتابة ، إذ كان أبوه يوسف بن صبيح ممن داح صيتهم في دواوين القرن الثاني ، وقد عنى بتأديب ابنه وإعداده للعمل في الدواوين وسرعان ما استخلعه المفضل بن سهل للأمامون ، فجعله على ديوان الرسائل ثم اختاره وزيراً له ، وظل على ورائته حتى توفي . وكان واحد زمانه في الكتابات الديوانية . ومن أروع رسائله السياسية رسالة الحميس التي كتبها في تأييد الدعوة العباسية ، وثقافته الكلامية واضحة في تجميدها إذ تحول به إلى ما يشبه مسحطاً كلامياً في الدلالة على وجود الله ووجدانيته وحديث الخلق وفناء العالم . وله رسائل شخصية تتصح فيها ما يتضح في رسائله الديوانية من تألق التعبير . حتى يمكن أن يقال إنه هو الذي أعدّ في قوة لأن بشيخ في النثر الديواني الرسمي أسلوب الازدواج والترادف الصوتي مما يجري فيه أحياناً من السجع . وكان له من مسنده مثله من كتابه .

إذ كان أبوه مسعدة يلى ديوان الرسائل للمنصور ، وقد أحكم تأديبه وتثقيفه .
وتلقفه جعفر بن يحيى البرمكى ، فاتخذته كاتباً للتوقيع بين يديه ، وغرس فيه
شغفه بالإيجاز والتأنق فى التعبير، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر نفسه .
والتحق بدواوين المأمون . حتى إذا رفع أ. مد بن يوسف إلى الوزارة أقامه مقامه على
ديوان الرسائل وظل يلىه إلى وفاته . وتتميز كتابته الديوانية بالاعتقاد المسرف
حتى كان يُضْرَبُ به المثل فى الإيجاز ، وهو يضيف إليه ميلاً شديداً
إلى التأنق والتنميق . وكان ابن الزيات من بيت تجارة ، غير أنه نشأ محباً للأدب .
فأقبل على التزود بعلوم اللغة وكنوز الآداب الأخرى والعربية ، حتى سرع فى
الشعر والكتابة حبباً . وسرعان ما التحق بدواوين المأمون . وما زال يحمه فى
صعود . حتى استورره المعتصم . وظل وريراً فى عهد ابنه الواثق والمتوكل إلى
أن نكحه الأخير نكته المشهورة . وكان لسناً بليغاً ولم يكن يصدر فى اللغته
ولسنة عن تكلف . وإنما كان يصدر عن طبع مهذب دون قصد إلى التأنق المسرف
أو التنميق المفرط ، وكان يحرص دائماً على فصاحة اللفظ وحسن الأداء مع الخزانة
والنصاعة

فهرس الموضوعات

صفحة	
٧-٥	مقدمة
٤٣-٩	الفصل الأول : الحياة السياسية
٩	(١) الثورة العباسية
١٥	(٢) بناء بغداد ثم سامراء
١٩	(٣) النظم السياسية والإدارية
٢٦	(٤) العلويون والخوارج
٣٣	(٥) أحداث مختلفة
٨٨-٤٤	الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية
٤٤	(١) الحضارة والثراء والترف
٥٦	(٢) الرقيق والحوارى والغناء
٦٥	(٣) المجون
٧٤	(٤) الشعوبية والزندقة
٨٣	(٥) الزهد
١٣٧-٨٩	الفصل الثالث : الحياة العقلية
٨٩	(١) الامتزاج الجنسى واللغوى والثقافى
٩٨	(٢) الحركة العلمية
١٠٩	(٣) علوم الأوائل : نقل ومشاركة
١١٨	(٤) العلوم اللغوية والتاريخ
١٢٦	(٥) العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال
٢٠٠-١٣٨	الفصل الرابع : ازدهار الشعر
١٣٨	(١) ملكات الشعراء اللغوية

صفحة	
١٤٧	(٢) طوابع عقلية دقيقة
١٥٩	(٣) التجديد في الموضوعات القديمة
١٨١	(٤) موضوعات جديدة
١٩٣	(٥) التجديد في الأوزان والقوافي
٢٨٩-٢٠١	الفصل الخامس : أعلام الشعراء
٢٠١	(١) بشار
٢٢٠	(٢) أبو نواس
٢٣٧	(٣) أبو العتاهية
٢٥٣	(٤) مسلم بن الوليد
٢٦٨	(٥) أبو تمام
٣٦٩-٢٩٠	الفصل السادس : شعراء السياسة والمديح والهجاء
	(١) شعراء الدعوة العباسية : أبو دلامة ، مروان بن أبي حفصة ،
٢٩٠	سلم الخاسر
	(٢) شعراء الشيعة : السيد الحميري ، منصور النمرى ، دعبل ،
٣٠٥	ديك الجن .
	(٣) شعراء البرامكة : أبان بن عبد الحميد اللاحق ، أشجع بن
٣٢٦	عمرو السلمي
	(٤) شعراء الوزراء والولاة والقواد : أبو الشيص ، عبد الله بن
٣٤١	أيوب التيمي ، على بن جبلة ، الحرثي
٣٥٩	(٥) شعراء الهجاء : أبو عيينة المهلبى ، عبد الصمد بن المعذل
٤٤٠-٣٧٠	الفصل السابع : طوائف من الشعراء
٣٧٠	(١) شعراء الغزل : العباس بن الأحنف ، ربيعة الرقي
	(٢) شعراء المحبون والزندقة : حماد عجرد ، مطيع بن إلياس ،
٣٨٢	صالح بن عبد القدوس

صفحة

	(٣) شعراء الزهد : عبد الله بن المبارك ، محمد بن كناسة ،
٣٩٩	محمود الوراق
٤١٤	(٤) شعراء الاعتزال : العتابي ، بشر بن المعتمر ، النظام
٤٣٤	(٥) شعراء النزعات الشعبية : أبو الشمقمق
٥٠٦—٤٤١	الفصل الثامن : تطور النثر وفنونه
٤٤١	(١) تطور النثر
٤٤٨	(٢) الخطب والوعظ والفصص
٤٥٧	(٣) المناظرات
٤٦٥	(٤) الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات
٤٩١	(٥) الرسائل الإخوانية والأدبية
٥٦٥—٥٠٧	الفصل التاسع أعلام الكتاب
٥٠٧	(١) ابن المقفع
٥٢٦	(٢) سهل بن هرون
٥٤١	(٣) أحمد بن يوسف
٥٥٢	(٤) عمرو بن مسعدة
٥٥٩	(٥) ابن الزيات
٥٦٥	خاتمة

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

- لأ عصر الدول والإمارات
(ليبيا - تونس - صقلية)
٤٤٦ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات (الجزائر)
(المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان)
٧٠٦ صفحات
- في مكتبة الدراسات الأدبية
- لأ الفن ومذاهبه في الشعر العربي
٥٢٤ صفحة
- لأ الفن ومذاهبه في النثر العربي
٤٠٠ صفحة
- لأ التطور والتجديد في الشعر الأموي
٣٤٠ صفحة
- لأ دراسات في الشعر العربي المعاصر
٢٩٢ صفحة
- لأ شوقي شاعر العصر الحديث
٢٨٦ صفحة
- لأ الأدب العربي المعاصر في مصر
٣٠٨ صفحات
- لأ البارودي رائد الشعر الحديث
٣٠٨ صفحات
- لأ الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
٣٣٦ صفحة
- لأ البحث الأدبي
(طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره)
٢٧٨ صفحة
- لأ الشعر وطوباعه الشعبية على مر العصور
٢٥٦ صفحة
- لأ في التراث والشعر واللغة
٢٧٦ صفحة
- لأ في الشعر والفكاهة في مصر
١٢٨ صفحة

- في الدراسات القرآنية
- لأ الوجيز في تفسير القرآن الكريم
١٠٥٢ صفحة
- لأ سورة الرحمن وسور قصار
«عرض ودراسة»
٤٠٤ صفحات
- لأ عالمية الإسلام
١١٩ صفحة
- لأ محمد خاتم المرسلين
٤٧٦ صفحة
- لأ الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة
٣٣١ صفحة
- في تاريخ الأدب العربي
- لأ العصر الجاهلي
٤٣٦ صفحة
- لأ العصر الإسلامي
٤٦١ صفحة
- لأ العصر العباسي الأول
٥٧٦ صفحة
- لأ العصر العباسي الثاني
٦٥٧ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات
(الجزيرة العربية - العراق - إيران)
٦٨٨ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات (الشام)
٣٥٦ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات (مصر)
٥٠٠ صفحة
- لأ عصر الدول والإمارات (الأندلس)
٥٥٢ صفحة

□ من المشرق والمغرب
(بحوث في الأدب)
صفحة ٢٧٢

في الدراسات النقدية

□ في النقد الأدبي
صفحة ٢٥٠

□ فصول في الشعر ونقده
صفحة ٣٦٨

□ في الأدب والنقد
صفحة ١٥٢

في الدراسات البلاغية واللغوية

□ البلاغة: تطور وتاريخ
صفحة ٣٨٠

□ المدارس النحوية
صفحة ٣٧٦

□ تجديد النحو
صفحة ٢٨٢

□ تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً
مع نهج تجديده
صفحات ٢٠٨

□ تيسيرات لغوية
صفحة ٢٠٠

□ تحريفات العامية للفصحى
صفحات ٢٠٣

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

□ ابن زيدون
صفحة ١٢٤

في مجموعة فنون الأدب العربي

□ الرثاء
صفحة ١١٢

□ المقامة

صفحات ١٠٨

□ النقد

صفحة ١١٢

□ الترجمة الشخصية

صفحة ١٢٨

□ الرحلات

صفحة ١٢٨

□ الحب العذري

صفحة ١٤٨

في التراث المحقق

□ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
(الجزء الأول)

صفحة ٤٦٨

□ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
(الجزء الثاني)

صفحة ٥٧٢

□ كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
صفحة ٧٨٨

□ كتاب الرد على النحاة

صفحة ١٥٢

□ الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر
صفحة ٣٥٦

في سلسلة «اقرأ»

□ مع العقاد

□ البطولة في الشعر العربي

□ الفكاهة في مصر

□ معى (١)

□ معى (٢)

□ القسم في القرآن الكريم

صفحة ٦٦٦